

مظاهر التعريب في الدولة الإسلامية خلال العصور الوسطى

**الدكتور علي أحمد
جامعة دمشق**

مظاهر التعريب في الدولة الإسلامية

خلال العصور الوسطى

الدكتور علي أحمد

جامعة دمشق

مقدمة:

يعدّ مصطلح التعريب من المصطلحات الهامة، التي واكبت مسيرة الدولة وأجهزة الحكم في العصور الوسطى، وكان على الدوام خلال هذه الفترة من أهم ما واجه الحكّام من مصاعب، ذلك لأنّ التعريب كمفهوم وتوجه اصطدم منذ البداية بمفهوم أو مصطلح الإسلام وكان الصراع قاسياً بين المفهومين أو المصطلحين، وبخاصة بعد أن دخلت العناصر الأجنبية (غير العربية) في الإسلام، فقد برهنت الأحداث أنّ معظم هذه العناصر، لم تكن وافية للإسلام، حينما تأكّدت من حالة التلازم بينه وبين العروبة، التي عزّت به، كما عزّ بها هو الآخر. وقد تجسّدت هذه الحالة على أرض الواقع بشكل واضح في العصر العباسي الأول، وذلك من خلال الصراع والتنافس الحاد بين الخلافة، التي بقيت حكراً على العنصر العربي، وبين الوزارة التي شغلها الفرس في معظم الأوقات، ولاسيما في عصر الخلفاء الأقوياء كهارون الرشيد وابنه المأمون وغيرهما. فكان الفرس على الدوام يتربصون بكل المخلصين للإسلام والعروبة على حدّ سواء، وقد وصلوا إلى نتيجة اتفقوا على صحتها، هي أنّ الإسلام هو الذي عزّز مواقع العرب في الحكم، وهو الذي ساعد من خلال إيمان أصحابه ومعتنقيه من العرب على التخلص من الإمبراطورية الفارسية والإمبراطورية البيزنطية، فراحوا

يروجون لعفائدهم القديمة، التي تلتصق التصاقاً وثيقاً بالقومية الفارسية، وتخدمها على طريق الاستقلال والتخلص من السيطرة العربية. وما جرى في العصر العباسي الأول، تكرر في العصور اللاحقة، التي تميزت بسيطرة العناصر الأجنبية على مقدرات الحكم، وكانت الصورة أشدّ مأساوية، حينما تمكنت العناصر الأجنبية من السيطرة على مؤسسة الحكم، ولاسيما في العصر العباسي الثاني وفي عصر الأيوبيين والمماليك، مما أدى إلى ظهور حركات شعبية في مصر والشام والعراق، كان هدفها الأول إعادة الاعتبار إلى العرب، الذين لاقوا عنناً كبيراً تحت مظلة الحكم الأجنبي، الذي استغل انتماءه إلى الإسلام للتحكم بكل شيء على الأرض العربية، وبخاصة في الجزء الشرقي من الوطن العربي الكبير. وقد تعاون بعض الخلفاء العباسيين المتأخرين مع هذه الحركات، بعد أن تحرّر من السيطرة الأجنبية، وبعد أن تأكد من خلال التجارب المريرة التي سبقته، أنه لا ينقذ البلاد من التشرذم والتفرّق إلا التمسك بمبدأ العروبة، التي يمكن أن يستظل بظلها كل العرب في مشرق وطنهم ومغرب.

وقد برهنت الأحداث والمحن، على أن العروبة هي الملجأ الأمين والأمن، الذي يمكن العودة إليه في الأيام الصعبة وفي الظروف القاهرة. والأمثلة كثيرة في التاريخ العربي في العصور الوسطى، نذكر منها أنه بعد سقوط دولة الموحدين بالمغرب والأندلس في النصف الثاني من القرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي، وبالتالي ضياع معظم أجزاء الأندلس العربية، هاجرت جموع غفيرة من الأندلسيين إلى المغرب الكبير، وإلى دول المشرق العربي: كمصر، والشام، والعراق، والحجاز، وعُدّ هؤلاء المهاجرون ضيوفاً كراماً من قبل الحكّام والشعب على حدّ سواء، وقد تساوا فيما بعد بالحقوق والواجبات مع سكان البلاد الأصليين.

هذا الواقع الإيجابي هو الذي جعلنا نهتم بموضوع التعريب ونعمل جاهدين لتبيان حقيقته وتأثيره إيجاباً في حياة الأمة العربية في العصور الوسطى، فقد ساعد بقوة على بلورة استقلالية الدولة وتحررها من التأثيرات الخارجية، كما حدث في العصر الأموي

وفي العصر العباسي الأول، وفي الفترة الأموية بالأندلس بصورة خاصة. كذلك فإن هذا البحث يبرهن بوضوح بأن مسيرة التعريب هي التي كانت تتحكم في أساسيات الأمور في عصر السيطرة الأجنبية على مؤسسة الحكم، كما في العصر الأيوبي المملوكي وقبله العصر العباسي الثاني، ففي هذه الفترة غير الميمونة، كان لا بدّ للحكّام من الاعتماد على الشخصيات العربية، ولاسيما في المفاصل الثقافية وبعض مفاصل الإدارة، كالوزارة ورئاسة الدواوين وما إلى ذلك. وقد اشتغل كثيرون ممن اعتمدتهم السلطات الأجنبية في وظائف مرموقة، فراحوا يشجعون على الأخذ بأسباب العلم والثقافة والإقبال على التأليف الموسوعي وغيره، من أجل الحفاظ على تراث الأمة العربية وهويتها القومية والوطنية، وذلك بعد أن وجدوا أنفسهم عاجزين عن فعل أي شيء مؤثر في السياسة العامة للبلاد.

وسيتظهر لنا جلياً من خلال تفاصيل هذا البحث أن الدولة العربية الإسلامية في العصور الوسطى، كانت أقرب إلى القوة والمنعة والتأثير، حينما كانت قيادتها من العنصر العربي وكانت أقرب إلى الضعف والتشرذم والوهن، حينما كانت قيادتها من العناصر غير العربية، ذلك لأن غير العرب لم يكن يهمهم في المقام الأول، سوى تحقيق مصالحهم الخاصة، دون النظر إلى أي شيء يمتّ بصلة إلى العرب أصحاب الأرض الحقيقيين. هذا وسنقوم بتحديد مظاهر التعريب في المجالات كافة، وبخاصة في السياسة والإدارة والثقافة، وذلك ابتداءً من عصر الرسول ﷺ حتى نهاية عصر المماليك.

ففي عصر الرسول ﷺ والخلفاء الراشدين، رُسمت الخطوط الكبرى لمسألة التعريب، وحددت مفاصلها الرئيسية، التي كانت متنوعة حتى شملت وجوه الحياة كافة، وذلك دون التعرض بالأذنية لأية فئة من غير العرب، لأن العروبة بثوبها الإسلامي تحترم جميع الناس، وتؤمن بقوة حقهم في الحياة والحرية والأمان والاستقرار. وقد تجلّى ذلك الواقع الإيجابي في تصرفات الرسول ﷺ وسياساته العامة واعتزازه بالعرب، وكذلك

في سياسات وتصرفات الخلفاء الراشدين، وبخاصة في ميدان الحرص على جعل المنطقة في الشام ومصر والعراق تسير على خطى التعريب من خلال عمليات وتصفية الجيوب البيزنطية والفارسية.

فقد نشأ الرسول الكريم في بيئة عربية خالصة، كان أهلها يشعرون بمطامع الفرس والروم في أوطانهم، مما أدى إلى ظهور الروح القومية، وبخاصة في اليمن بعد أن استولى عليها الأحباش، وزاد من لهيب الشعور القومي هزيمة أبرهة في مكة المكرمة، مما أعطى اليمنيين دافعاً قوياً على مناوأتهم والتصدي لهم بكل الوسائل، واستطاع سيف بن ذي يزن الحميري أن يلحق الهزيمة في صفوفهم، وأن يطردهم من الديار العربية^(١).

وحينما انتصر العرب على الفرس في موقعة ذي قار سنة ٦٠٩م، فرح الرسول الكريم ﷺ فرحاً شديداً، وعبر عن ذلك بقوله: "هذا أول يوم انتصف العرب فيه من العجم"، وكان يعبر عن أمانى العرب جميعاً في التحرر والانعتاق من السيطرة الفارسية المطلقة^(٢).

وعلى الرغم من خروج الرسول الكريم ﷺ من مكة المكرمة رغم إرادته، فإنها بقيت في فكره وقلبه وداخل دائرة حبه واهتمامه، مما جعله يدعو الله مدة ثمانية عشر شهراً، كي يأسره بالصلاة باتجاهها، فكان له ذلك في الخامس عشر من شعبان وكان الرسول ﷺ يهدف من وراء ذلك أن يشعر أهل مكة المكرمة بأهمية مدينتهم بالنسبة للعرب، وأنه لا بد من عودته إليها، بعد أن أصبحت قبة عربية، يرتضيها ويقبل بها عرب الجزيرة العربية، باعتبار أنها كانت في الماضي عاصمة الوثنية العربية، ولا مانع أن تظل العاصمة الروحية في ظل دولة الإسلام، التي اتخذت من المدينة المنورة عاصمة لها على الصعيد السياسي، والآن أصبحت مكة المكرمة المركز الروحي الأول للعرب المسلمين^(٣).

وقيل: إن الرسول ﷺ كان دوماً يعتز بأصله العربي الصريح، ويدعو بحرارة إلى محبة العرب، فقد ذكر أنه قال: "من أحب العرب فبحبه لي" لأن الله سبحانه وتعالى اختاره لأن يكون من أصل عربي، وأنزل عليه القرآن بلسان عربي مبين.

هذا وقد بدأت مشاريعه العربية منذ الأيام الأولى لوصوله إلى المدينة المنورة، فقد وضع الصحيفة (الدستور) التي تنظم الحياة العامة في الدولة الجديدة، وكان من أهم بنود هذه الصحيفة، البند الذي يؤكد على احترام الآخر، الذي تمثل آنذاك باليهود والنصارى، وهو دافع اشتهر به العرب دون غيرهم من الأمم، ذلك لأن الرسول الكريم ﷺ كان يؤسس لدولة عربية، تمتلك كل أساليب ومتطلبات الدولة القيادية التي تستوعب جميع العناصر على اختلاف دياناتهم وأعراقهم. وهذا ما ظهر جلياً حينما استقبل ﷺ بالمدينة المنورة كبير أساقفة مدينة نجران، وأجرى معه محادثات مطولة، تخللتها كل وسائل الدبلوماسية والاحترام للآخر، لأن الرسول الكريم كان ينطلق في ذلك من حق المواطنة العربية، التي يتمتع بها كبير الأساقفة سابق الذكر^(٤).

كذلك فقد قام ﷺ بتوجيه بعض الحملات باتجاه الشمال وبخاصة إلى تبوك ومؤتة، حيث كان يسيطر عليها البيزنطيون، وهذا إن دل على شيء فإنه يدل على أن الهاجس الأول للرسول الكريم، كان يتجسد في تحرير الأرض العربية من السيطرة الأجنبية، وإعادة هذه الأرض إلى الدائرة العربية الأصلية، وقد حصل ذلك بشكل فعلي حينما وجه جيشاً إلى مؤتة بقيادة زيد بن حارثة، على الرغم من أنه ﷺ كان يعلم علم اليقين أن هذا الجيش لا يستطيع أن يفعل شيئاً مؤثراً أمام الجيش البيزنطي، ولكنها رسالة كان لا بد من إرسالها للبيزنطيين ومن يماثلهم من المحتلين والمتربصين^(٥).

وقد حرص الرسول الكريم ﷺ على استمرارية العرب في الحكم من بعده، ونوه بأن الخلافة يجب أن تكون في قريش بقوله: "الأئمة من قريش" وذلك لفضل قريش في خدمة اللغة العربية وريادتها في هذا المجال الحيوي، وأوصى القرشيين بأن يحسنوا إلى الأنصار وأن يتجاوزوا عن المسيئين منهم. وقد استغل المجتمعون في سقيفة بني

ساعده قول رسول الله ﷺ هذا واعتمدوا عليه وبرروا ما فعلوه في هذه السقيفة، من انتخاب أبي بكر للخلافة، واستبعاد كل المرشحين الآخرين كعلي بن أبي طالب، وسعد ابن عباد الأنصاري^(٦).

وإذا كان الرسول الكريم ﷺ قد أوصى بذلك، فإن هذه الوصية على المستوى الظاهري تتناقض مع قوله ﷺ في حجة الوداع: "..... ليس لعربي على أعجمي فضل إلا بالتقوى اللهم إني قد بلغت اللهم فاشهد". لكن ابن خلدون برّر بقوة حق قريش في القيادة. والسياسة والإدارة، وانطلق في ذلك من مفهومه المعروف بتأثير العصبية القبلية حينما تكون القبيلة قوية وهذا ما توفر عند قبيلة قريش، التي شكلت عصبه قوية كثيرة العدد، وكانت مجتمعة حول استراتيجية واضحة، ودليل ذلك أن سائر العرب كانوا يعترفون لقريش بالقوة والسيطرة والقيادة والغلبة، وهو أمر في غاية الأهمية، ذلك لأنه يساعد في استمرارية الدولة بعد غياب الرسول ﷺ الذي كان يعرف واقع قريش معرفة ميدانية^(٧).

أما في العصر الراشدي فقد ظهر أمر التعريب بصورة أكثر وضوحاً. ونصاعة في العديد من الوجوه والمواقع الهامة، فمُنذ الفترة الأخيرة من حياة الرسول الكريم، بدأ الشعور القومي العربي يتنامى بسرعة لافتة وقد تجسّد ذلك باهتمام الرسول الكريم بشمال الحجاز، حيث خاض أنصاره معركة مؤتة، كما خاض بنفسه معركة تبوك. واستمر الشعور القومي العربي بنموه القوي في أثناء الفتوحات العربية في الشام والعراق ومصر والمغرب، وكان ذلك واضحاً في العراق، حينما أصر العرب على تحريرهم من الفرس، الذين كانوا يشكلون خطراً كبيراً على الجزيرة العربية^(٨).

ومما ساعد في سرعة إنجاز التحرير في العراق والشام، ذلك الشعور القومي بالانتماء إلى مدرسة العروبة، وهو شعور غلب على كل المشاعر الأخرى وتفوّق عليها، ولاسيما في صفوف عرب جنوب بلاد الشام وعرب جنوب العراق، الذين انضموا إلى إخوانهم الفاتحين القادمين من جزيرة العرب، مثال ذلك بنو نمر وبنو

تغلب الذين قالوا بصراحة: "تقاتل مع قومننا"^(٩)، وقد تجلّى ذلك في العراق بشكل خاص في معركة البويب سنة ١٣هـ/٥٣٦م، وكذلك فعل عرب جنوب بلاد الشام، حينما استقبلوا الجيوش العربية الفاتحة بالترحاب وعدوهم مخلصين لهم من السيطرة البيزنطية، إضافة إلى اشتراكهم معهم في العرق واللغة والانتماء^(١٠).

كذلك لم يكن المصريون أقل من أهل الشام والعراق على صعيد مساعدة الفاتحين العرب، فقد انضم المصريون إلى صفوف الفاتحين منذ اللحظة الأولى لوصولهم مصر، وقاتلوا ضدّ الروم البيزنطيين، فقد كتب بنيامين بطريك الإسكندرية، حينما سمع بدخول العرب أرض مصر إلى الأقباط سكان مصر، يأمرهم باستقبال عمرو ابن العاص وأن ينخرطوا في صفوف جيشه، وأن يمتثلوا لأوامره العسكرية وقيادته^(١١).

وقد دخل التعريب في شؤون التنظيمات الإدارية والعسكرية، فقد أمر عمر بن الخطاب، أن تكون الجندية قاصرة على العرب دون غيرهم، ومنعهم من امتلاك الأراضي في الشام ومصر والعراق، حتى لا يتركوا عملهم الرئيس وهو أعمال الجندية، ويتوجهون إلى الاشتغال في أعمال الفلاحة والزراعة، وأمر بإقامتهم في معسكرات خاصة، حتى يعزلهم تماماً عن بقية الناس، حتى يحافظوا على أصولهم العربية الصريحة ولكن هذه الإجراءات لم تستمر بعد وفاة عمر بن الخطاب، فعادوا إلى امتلاك الأراضي والسكن حيث طاب لهم المقام، فضعف العنصر العربي إلى حدّ ما^(١٢).

وعلى صعيد البحر فقد أمر عمر بن الخطاب، على أن يتولى أمر الحراسة والمراقبة في المحارص البحرية على المتوسط العرب وحدهم، ذلك لأن الثقة في غير العرب في هذه الفترة من عمر الدولة العربية الإسلامية، لم تكن كبيرة وبالأحرى لم تكن موجودة، وقد أخذ بهذه السياسة بشكل خاص معاوية بن أبي سفيان، الذي عرف عنه اهتمامه اللافت في أعمال البحرية^(١٣).

وفي ميدان السياسة أوصى عمر بن الخطاب في أواخر أيامه خيراً بالعرب، فقد قال لأبي طلحة الأنصاري: "... وأوصى الخليفة بالعرب فإنهم مادة للإسلام، أن يؤخذ من صدقاتهم حقها فتوضع في فقرائهم"، وهذه الوصية على جانب كبير من الأهمية، وبخاصة ما يتعلق منها بالعرب على إنهم مادة الإسلام وأداته، فقوة العرب ووحدتهم في جبهة واحدة، تعني الإسلام وقوته واستمراره وعزته^(١٤).

ومما يدل على محبة عمر بن الخطاب للعرب وثقته بهم، فإنه أمر بإعفاء بني تغلب من المسيحيين من دفع الجزية طوال حياتهم، وسبب ذلك إنهم يتحدرون من أصول عربية صريحة.

وكان الإمام علي بن أبي طالب كرم الله وجهه، يحرص منذ صغر سنه على مصلحة العرب العليا، فقد كان يدعو على الدوام إلى توحيد صفوف الأمة وتعزيز قوتها ومواطن نجاحها، وإلى ضرورة أخذها بأسباب القوة عن طريق الإقدام على العلم والتقدم وهذا ما لمس فيه رسول الله ﷺ لقربه منه، فقال في حديث نقل عنه ﷺ: إنه سأل أصحابه ذات مرة، من سيد العرب؟ فقالوا: أنت يا رسول الله، قال: بل عليُّ سيد العرب، أما أنا فسيد ولد آدم^(١٥).

أما في العصر الأموي فقد تبلور مفهوم التعريب في معظم نواحي الحياة العامة، وأصبح سياسة طبيعية معروفة، سار عليها ونفذها معظم الخلفاء الأمويين قدر استطاعتهم، مما جعل معظم المؤرخين والمهتمين بالدولة الأموية، يقولون عنها: إنها دولة عربية أعرابية في المقام الأول. فقد جعل الأمويون من العروبة القاسم المشترك الرئيس، الذي يجتمع عليه العرب في كل ديارهم في كل الأوقات، فراحوا يدققون في أنساب الخلفاء وكبار موظفي الدولة، فكانوا يعتمدون ذوي الأصول العربية الصريحة، ذلك لأنهم كانوا يؤمنون بأن العرب وحدهم الذين يمكنهم النهوض بأعباء أمتهم دون

الآخرين، وقد برهنت الفترات اللاحقة بعد سقوط دولة الأمويين صحة رأيهم، فقد أدى الاعتماد على العناصر غير العربية إلى نتائج سلبية قاسية^(١٦).

لقد سعى الأمويون منذ وقت مبكر إلى دفع عملية البناء الحضارية في كل الميادين ذلك نذروا جلّ وقتهم، وكانت أولى النتائج التي تمخضت عن هذا الواقع، إن حرم على أسس عربية خالصة مستقلة عن المؤثرات الخارجية قدر الإمكان ولتحقيق العديد من شخصيات بني أمية من استلام منصب الخلافة، بحجة أنهم لم يكونوا عرباً خالصاً من ناحية آبائهم وأمهاتهم، نذكر من هذه الشخصيات مسلمة بن عبد الملك، لأن والدته لم تكن من أصل عربي صريح^(١٧)، ومروان بن محمد آخر الخلفاء الأمويين الذي لم تؤيده القوى العربية، انطلاقاً من كونه مغتصباً للخلافة، إضافة إلى أن والدته كانت من أصول غير عربية، ففشل أمام العباسيين في معركة الزاب الشهيرة سنة ١٣٢هـ/٧٥٠م، كما هو معروف^(١٨).

وربما كان معاوية بن أبي سفيان، هو الذي رسم الخطوط الكبرى بهذه السياسة العربية الخالصة، وقلّده فيما بعد الخلفاء الذين تعاقبوا على الحكم، وذلك من خلال العديد من التصرفات والمواقف، التي صدرت عنه وكان بوده أن تتحقق جميعها، من ذلك موقفه من المجموعة غير العربية، التي أطلق عليها اسم (الحمراء)، فكان رأيّه في هذه المجموعة سلبياً، وكان بوده التخلص منها بشتى الوسائل، ذلك لأنه كان يرى فيها خطراً كبيراً على مستقبل الدولة الأموية، لكن الأحنف بن قيس استطاع بلباقة أن يقنعه بالعزوف عن مشروع التخلص من الموالي (الحمراء)^(١٩).

من جهة أخرى فإن معاوية بن أبي سفيان، تزوج من ميسون بنت بجلد الكلبيّة، حرصاً منه على استمرارية العنصر العربي فميسون بنت بجلد، هي من قبيلة كلب العريقة في عروبته وانتمائها العربي العريق، وكان الكلبيون يسكنون فيما يعرف

اليوم بحي المزة غرب دمشق. وكان أطباؤه وحراسه من العرب المسيحيين الذين وثق بهم طوال حياته^(٢٠).

وعلى هذا الأساس فقد عامل الأمويون أهل المغرب الكبير معاملة قاسية، ذلك لأنهم كانوا في نظرهم من غير العرب، وكانوا يطلقون عليهم تسمية (البربر)، وهذا خطأ فاحش وقع به الأمويون من غير قصد، ذلك لأن تسمية البربر لا تدل على جنس أو عرق بحد ذاته، بقدر ما تدل على إنها صفة أطلقت على كل الشعوب التي لا تتكلم اليونانية أو الرومانية، والذين أطلقوها على المغاربة هم اليونان والرومان^(٢١)، ومن هذا المنطلق عامل عقبة بن نافع المغاربة معاملة قاسية طوال ولايته على المغرب الكبير، فحرّمهم من القيادة والعطاء، ونظر إليهم نظرة ازدراء وصغار، مما أدّى إلى قيامهم ضده، وتمكنوا من تهوده (سيدي عقبة) من قتله مع مجموعة كبيرة من جنده العرب المخلصين سنة ٦٥هـ / ٦٨٥م^(٢٢).

ولا بدّ من أن الباحث المثابر والمتعمق، سيصل إلى نتيجة مفادها، إن هاجس الأمويين كان على الدوام، يتمحور حول مسألة تجسيد الروح العربية في جميع مناحي الحياة، فما أن تخلص عبد الملك بن مروان من مشاغله الداخلية، حتى بدأ في أكبر عملية حضارية، أراد أن يقوي من خلالها جذور الوجود العربي وأركانه، هذه العملية هي عملية التعريب، التي شملت دواوين الدولة برمتها، وكذلك عملة الدولة المتداولة بين الناس. فتعريب الدواوين يؤدي إلى تدعيم سلطة الدولة إدارياً، وكذلك الأمر بالنسبة لتعريب النقود. كل هذا ساعد حتماً على نشر اللغة العربية والتخلص من الموظفين غير العرب، وإتاحة الفرصة للعرب للوصول إلى أرفع المناصب الإدارية وأهمها شأنًا. قد أن كان ذلك يقتصر على غير العرب.

وكان من أهم الدواوين التي شملتها عملية التعريب في عصر عبد الملك بن مروان ديوان الجند، وديوان الخراج، وديوان الرسائل، وديوان المغانم، وديوان البريد. وكان

الذي يقوم بإدارة هذه الدواوين الهامة قبل عملية التعريب، اليونانيون في الشام، والفرس في العراق والأقباط في مصر^(٢٣).

وعلى الرغم من أن الخليفة الأموي عمر بن عبد العزيز، كان قد ركّز بشكل خاص على إعادة المثل الإسلامية العليا إلى الحياة العامة، فإنه أعطى أوامره للسمح بن مالك الخولاني والي الأندلس للأمويين، أن يقوم بتخصيص جزء من أرض الخراج هناك، ويعطيها لمجموعات عربية تسكن فيها بصورة دائمة، بعد أن أقنعه السمع بن مالك بضرورة بقاء العرب هناك، لأن عمر بن عبد العزيز كان عازماً في بداية حكمه على سحب العرب من الأندلس بسبب مخاوفه عليهم في شبه الجزيرة الإيبيرية (الأندلس) النائية والمحاطة بالمياه من معظم جهاتها. وكان يهدف من توزيعه للأرض، أن يجعل العرب يتطلعون إلى الاستقرار في الأندلس بصورة دائمة، مما يساعد على انتشار وتجذر مفاهيم العروبة والإسلام^(٢٤).

من ناحية أخرى فقد كانت مظاهر وملامح ما يكنّه الأمويون تجاه العرب والعروبة، تظهر بوضوح في أقوالهم وأفعالهم في كثير من المناسبات الوطنية، وبرهنوا من خلال هذه الأقوال عن عظيم تمسكهم في المسيرة العربية، التي كانت عندهم من أقدس المقدسات، ولا بدّ من وضعها في طليعة النواحي الأخرى. ولعل أهم ما يجسّد هذا الواقع الطيب في تاريخ الدولة الأموية، ذلك القول المشهور للخليفة الأموي هشام ابن عبد الملك، حينما سمع بخبر هزيمة الوالي المغربي عبيد الله بن الحبحاب أمام ثورة الخوارج، التي اندلعت في المغرب الأقصى^(٢٥)، بقيادة ميسرة المتغري سنة ١٢٢هـ/٧٣٩م، التي كانت ثورة ضد الدولة الأموية برمتها. قال هشام بن عبد الملك: "والله لأغضبن لهم غضبة عربية، ولأبعثن له جيشاً أوله عندهم وآخره عندي"^(٢٦). ويدل هذا القول في المقام الأول على مدى اعتزاز الخلفاء الأمويين بانتمائهم العربي.

فالأمويون كما هو معروف عنهم، أنهم اعتقدوا على الدوام، أن الدين الإسلامي لن يتمكن من أن يصبح القاسم المشترك لجميع الشعوب التي دخلت الإسلام، لأن هذه الشعوب وبخاصة الفرس والترك، بقيت وفيّة لانتماؤها القومي الخالص، وظل تأثير الإسلام فيها هامشياً باهتاً. لذلك نرى أن الأمويين تعصبوا لعروبيتهم، وجعلوها سابقة على كل معتقد، فكانت في نظرهم القاسم المشترك الذي تجمع عليه العرب ومن ناحية أخرى كانت المظلة الوحيدة التي يستظل بظلها العرب،

وقد أصاب الأمويون في هذه النظرة البالغة النضوج، لأنهم كانوا يعرفون تمام المعرفة أن الشعوب الأخرى من غير العرب، والتي دخلت في الإسلام، لا يمكن أن تتخلى عن مشاعرها الوطنية والقومية الخاصة. وهذا ما حدث بالفعل في العصور التالية حينما تعصبت هذه الشعوب ضدّ العرب، وضربوا هيبة الخلافة والمصالح العربية طوال العصور الوسطى^(٢٧).

فحينما جاء عمر بن عبد العزيز إلى الخلافة بعد سليمان بن عبد الملك، قام بالعديد من الإصلاحات الإدارية والمالية، منطلقاً بذلك من أسس شرعية إسلامية، لأنه هو الخليفة الأموي الوحيد الذي أراد إحياء الشريعة الإسلامية وجعلها الموجه العام لسياسة الدولة، فنصدى له الأمويون وعدّوه نكسة كبيرة لمشروعهم السياسي العربي، فظلموا يلاحقونه في السرّ حتى تمكنوا من قتله بواسطة السمّ في دير سمعان من أعمال حلب بشمال سورية^(٢٨).

مهما كان من أمر فقد نفّذ الأمويون زرع جذور ورايات التعريب في كل ميدان من ميادين الحياة العامة، معتمدين في ذلك على إيمانهم الراسخ بأن العرب لن يكتب له الخلود إلا بالاعتماد على أنفسهم من خلال ثرواتهم الكبيرة ومن خلال تعاونهم منع بعضهم ومع الآخرين على أساس الاحترام المتبادل.

أما في العصر العباسي^(٢٩)، فلم يكن الأمر يختلف من حيث التوجّه والمضمون عن العصر الأموي، على الرغم من وصف الدولة العباسية بأنها كانت دولة فارسية تركية في كل شيء. فقد دلت الأحداث أن هذا القول مبالغه كبيرة، ودليل ذلك أنها كانت دولة عربية خالصة، لم تختلف عن الدولة الأموية في شيء، سوى أن الخلفاء العباسيين ساروا على نهج سياسي مبرمج، قام على أساس إعلان المساواة بين العرب وغير العرب. لكن الذي ينبغي أن نشير إليه هو أن المساواة لم تكن كاملة، أو بالأحرى لم تكن حقيقية وبخاصة في مسائل انتقال السلطة وشؤون الحكم. وإن الاستثناء الذي حصل في هذا المجال، هو أن العناصر غير العربية، بدأت تظهر في المناصب الإدارية المختلفة بين الفينة والأخرى، كقوة كان لها بعض التأثير الآتي، ولاسيما في مجال الإدارة وهو ما سنتحدث عنه بالتفصيل في الفقرات الآتية فقد حاول الخلفاء العباسيون منذ البداية، أن يقنعوا الناس بأنهم سيحكمون باسم الدين بعكس الأمويين، الذين ابتعدوا عن هذا الإطار تماماً، حينما أعلنوا قاسماً مشتركاً للحكم هو الولاء والوفاء للعروبة، لكن على الرغم من حرص العباسيين على التظاهر بذلك، فإنهم لم يسمحوا بالتطاول على سلطتهم ومصالحهم العربية، وبقي ما أعلنه الخلفاء أقرب إلى الواقع النظري منه إلى الواقع العملي والتطبيقي. وقد بدأت المظاهر الدالة على ذلك تظهر بوضوح منذ أن أعلن أصحاب الدعوة العباسية، انتقال ثورتهم ضد الأمويين من مرحلة السرية إلى مرحلة العلنية، وهو ما حدث بولاية خراسان، حينما أمر المسؤول عن الدعوة العباسية أبو مسلم الخراساني^(٣٠)، بالانتقال إلى خراسان وممارسة كل نشاطاته ضد الأمويين بصورة علنية. حينما وصل أبو مسلم الخراساني إلى ولاية خراسان، بدأ حرباً شعواء ضد العناصر العربية من ربيعة والأزد، وارتكب ضد هذه العناصر مجازر دموية مروعة، قل نظيرها في التاريخ العباسي، فقد بلغ عدد الذين قتلهم نحواً من أربعين ألفاً، وكان يريد من وراء ذلك تصفية الوجود العربي بخراسان، هذا الوجود الذي يشكل خطراً كبيراً في طريق تحقيق أهدافه، التي ظهرت فيما بعد

بوضوح، وهي الاستقلال بولاية خراسان عن الخلافة العربية، لتكون نقطة انطلاق على طريق إعادة الدولة الفارسية، التي انهارت كما هو معروف تحت ضربات العرب في العصر الراشدي^(٣١).

وقد ظهرت نوايا أبي مسلم الخراساني على حقيقتها، حينما نجحت الثورة العباسية وتسلم الخلافة أبو العباس السفاح، الذي لم يعيره أبو مسلم الخراساني أي نوع من الاهتمام أو الاحترام، وبقي ينظر إلى أبي العباس نظرتة إلى أي مواطن عادي، ذلك لأنه كان يشعر بأنه أفضل منه على المستويات كافة، وأن تسلمه للخلافة لم يكن لجدارته على الإطلاق، يساعده على ذلك موقفه القوي بولاية خراسان، الذي كان يقوم على أغلبية تركية وفارسية مناوئة للعرب، وقبل ذلك كان أحد قادة الدعوة العباسية. وقد ذكر في خطبة له في مجموعة من الخراسانيين ما يلي: "يا أهل خراسان هذه البلاد كانت لأبائكم الأولين، وكانوا ينصرون على عدوهم وسلط عليهم أذل أمة في الأرض كانت عندهم (يقصد العرب) فغلبوا على بلادهم، واسترقوا أولادهم فكانوا بذلك يحكمون بالعهد وينصرون المظلوم، حتى بذلوا وغيروا وجاروا في الحكم وأخافوا أهل البرّ والتقوى، فسلطكم الله عليهم لينتقم منهم بكم ليكونوا أشد عقوبة لأنكم طالبتموهم بالثأر"^(٣٢).

كان أول من شعر بخطورة أبي مسلم الخراساني على المصلحة العربية هو أبو جعفر المنصور، الذي كان يخشى على الدولة العربية من سطوته، وبخاصة أن مكانته كانت تعاضمت إلى درجة كبيرة، فطلب أبو جعفر من أخيه الخليفة أبي العباس السفاح أن يسرع بوضع حد لسطوة أبي مسلم بقوله: "ولست بخليفة ما دام أبو مسلم حياً فاحتل لقتله قبل أن يفسد عليك أمرك فقد رأيتك وكأنه لا أحد فوقه ومثله لا يؤمن عذره ونكته"^(٣٣)، ومع ذلك فإن أبا العباس السفاح، لم يجرؤ على قتله خوفاً من نفوذ الخراسانيين، الذين كانوا يتجمعون حوله على أساس أنه المنقذ لهم من حكم العرب^(٣٤).

بقي أمر أبي مسلم الخراساني وخطره على الدولة العربية قائماً، حتى جاء أبو جعفر المنصور إلى الحكم، فوضع في طليعة مهماته الملحة مهمة التخلص من أبي مسلم الخراساني، ذلك لأنه كان يرى فيه خطراً كبيراً على الدولة العربية آنذاك، وبخاصة أنه كما ذكرنا كان يحظى بتأييد غالبية السكان بخراسان، وقد كانت ولاية كبيرة وهامة في الوقت ذاته، وقد نجح المنصور بقتل أبي مسلم سنة ١٣٧هـ/٧٥٥م^(٣٥).

ورغم ما حدث فقد حاول العباسيون الأوائل الاعتماد على بعض العناصر غير العربية، وبخاصة في بعض شؤون الحكم مثل الوزارة والجيش وبعض المناصب الإدارية الأخرى، وذلك بالاعتماد على مبدأ أعلنوه منذ بداية دعوتهم، وهو المبدأ القائل بوجوب المساواة بين كل أبناء الدولة من عرب وغيرهم، معتمدين في ذلك على تعليمات الشريعة الإسلامية، ولكن ذلك المبدأ لم يقدر له النجاح، واصطدم بعقبات كثيرة حالت دون نجاحه وتطبيقه، لأن هذا المبدأ شجع الغرباء برمتهم على الانتقام من العرب بكل الوسائل.

فقد بدأ العداء للعروبة بالهجوم على الإسلام، ذلك لأن الغرباء من فرس وترك كانوا يعدّون الإسلام مساوياً للعروبة تماماً في كل أهدافها وتوجهاتها، ودليل ذلك أن أبا جعفر المنصور حينما سأل أحد الموالى عن أصله بصورة استكبارية أجاب: "إن كانت العروبة ديناً (يقصد الإسلام) فقد دخلنا فيه وإن كانت لساناً (يقصد العربية) فقد نطقنا به"^(٣٦)، وهذا ما ساعد على ظهور حركات دينية معادية للإسلام، وكل هذه الحركات كانت فارسية خالصة، تمثل برمتها وعي الأمة الفارسية الإيرانية في صورته الكاملة، فالثنوية والمجوس على سبيل المثال، كانوا يسعون بكل إمكانياتهم إلى إرجاع حكم الفرس وإلغاء الإسلام نهائياً، لأنه كما ذكرنا يمثل في نظرهم جوهر العروبة، لكنهم لم يفصحوا عن ذلك بشكل علني في البداية، بل حرصوا على السرية في ها المجال، فعملوا بهدوء وروية وإحكام^(٣٧).

وقد صور المقرئ في هذه الحالة خير تصوير بقوله: "واعلم أن السبب في خروج الكثير من الطوائف عن ديانة الإسلام، أن الفرس كانت من سعة الملك وعلو اليد على جميع الأمم وجلالة الخطر في أنفسهم بحيث إنهم كانوا يسمون أنفسهم الأحرار والسادة. وكانوا يعتدون سائر الناس عبيداً لهم. فلما امتحنوا بزوال الدولة عنهم على أيدي العرب، وكانت العرب عند الفرس أقل الأمم خطراً، تعاضهم الأمر، وتضاعفت لديهم العصبية، وراموا كيد الإسلام بالمحاربة في أوقات شتى (٣٨).

وقد تجسّد العداء للعروبة تحت عنوان محاربة الإسلام في عدد من الحركات العسكرية والفكرية، فمن الحركات العسكرية هذه نذكر ثورة سنباذ في إقليم نيسابور، وثورة إسحق الترك، وثورة الرواندية، وثورة المقنع هاشم بن حكيم، وثورة بابك الخرمي التي كانت أخطر هذه الثورات، وجميعها ثورات قومية فارسية معادية للعرب (٣٩).

ومن الحركات الفكرية التي كانت أشد خطراً على السلطان العربي من الحركات العسكرية، ذلك لأنها استهدفت الموروث الثقافي العربي في المقام الأول، وعملت على إبراز الموروث الثقافي الفارسي، نذكر حركة الزندقة، وحركة الشعوبية بشكل خاص، ذلك لأنهما برهنتا بشكل لا يقبل الجدل على فشل السياسة العباسية، التي اعتمدت على مبادئ مساواة الغرباء بالعرب، وبالتالي ضرورة الاعتماد على المبادئ القومية العربية، وهو الأمر الذي فعله العباسيون، حينما عادوا في الحكم وفي غيره إلى سياسة الأمويين، التي كانت تعتمد على العنصر العربي دون غيره (٤٠).

ومن أعجب ما حدث في العصر العباسي الأول، حينما اشتد خطر الشعوب على العرب، هو أن رجال الدين اشتركوا في كبح جماح هذا الخطر، وقد تجلّى اشتراكهم في الترويج والدعاية لمذهب الاعتزال، الذي عدّه أصحابه موافقاً تماماً لما جاء في القرآن، من دعوة للأخذ بأسباب العلم والتطوير الدائم والإبداع (٤١)، ذلك لأن هذه الدعوة كانت في نظر المعتزلة جزءاً لا يتجزأ من المهمة العليا العربية. وهذا ما جعل

الحكومة العباسية ومن ورائها السلطات الدينية الأخرى، تبدأ بإحياء مسألة الانتماء إلى الأصول العربية والتمسك بمبدأ العروبة، وعدّوا ذلك أفضل ما يساعد على الوقوف في وجه كل الحركات المعادية والمتربصة. وكان رجال الدين قبل ذلك يرفضون أية سيطرة تحاول التقاليد العربية أن فرضها على أي مثل أو نظام ديني، لكن خطورة الشعوبية جعل كل المتدينين من أصول عربية، يرفضون كل تأثير أجنبي. وتطور الأمر إلى تكوين صلة وثيقة بين العلوم الدينية وفقه اللغة العربية، وتطورت هذه الصلة حتى أصبحت هذه العلوم كياناً واحداً تفوح منه رائحة العروبة^(٤٢).

ومن أخطر ما كانت تروجه حركة الشعوبية، هو الاستهتار أو الاستخفاف بكل شيء يمت للعرب بصلة، وهذا ما جعل وشجع المدافعين عن الثقافة العربية يذهبون في دفاعهم إلى أقصى الحدود، فقد أمر الخليفة المأمون بإنشاء بيت الحكمة على أساس التركيز على تدريس العلوم التطبيقية والفلسفة القائمة على أساس عربي، والتوسع في البحث والتقصي من أجل مواجهة الحملات المغرضة برمتها^(٤٣)، وكان من أهم المفكرين العرب الذين انبروا للدفاع عن الوجود العربي ومواجهة الشعوبية، عمرو ابن بحر المعروف بالجاحظ، الذي أبدع وكتب أدباً عربياً راقياً على أسس عربية وإنسانية واضحة المعالم، وقد تجسّد ذلك بشكل خاص في كتابيه الشهيرين (كتاب الحيوان) و(البيان والتبيين).

كذلك فقد كان ابن قتيبة من كبار المدافعين عن العرب ضدّ الشعوبية وغيره، فقد كتب عدة مجلدات تتضمن مختارات في مختلف العلوم العربية، التي أنتجها العرب وأهدوها للإنسانية كمصادر مفيدة في شتى وجوه الحياة العامة، وغيرها مما جعل العديد من العلماء مضطراً للاعتراف بأن العلوم العربية الإنسانية وغيرها، قد انتصرت ولا بدّ في الوقت ذاته من العودة إليها كمصدر هام للتراث العربي العام^(٤٤).

وقد تبلور الحفاظ على المصالح العربية والمشاعر العربية، والتمسك بكل ما يمت إلى ذلك بصلة في مواقف الخلفاء العباسيين في الدور الأول من حكمهم فعلى الرغم من

تهاون بعض هؤلاء الخلفاء مع بعض العناصر من غير العرب، وبخاصة أولئك الذين شغلوا مناصب إدارية رفيعة المستوى، على الرغم من ذلك فإن الخلفاء كانوا يعودون إلى وعيهم وحسهم العربي في الوقت المناسب فيعيدون المسيرة العربية إلى وجهتها الصحيحة. والأمثلة على ذلك كثيرة، منها ما حدث في عصر الخليفة هارون الرشيد^(٤٥)، حينما أعطى أمر الوزارة إلى البرامكة الفرس، الذين حاولوا منذ البداية استغلال مناصبهم الرفيعة لصالح المسألة الفارسية على حساب العرب ومصالحهم، الأمر الذي جعل هارون الرشيد يتخلص من سلطتهم بعد أن شملت كل شيء^(٤٦).

وكذلك مثال ما حدث من نزاع بين الأمين والمأمون، وهو نزاع كان سببه في المقام الأول، محاولة العرب دفع غائلة الفرس، فكان يمثل العرب في هذا النزاع الخليفة الأمين، أما الفرس فقد مثلهم في البداية المأمون الذي حرص حينما أصبح خليفة على حماية المصالح العربية العليا، بعكس ما كان يعول عليه الفرس^(٤٧)، ذلك لأنه شعر بجسامة الحدث الذي أقدم على ارتكابه في نزوة الصراع على السلطة مع أخيه الأمين، الذي كان ضحية هذا الصراع الأساوي لأن الخليفة الأمين كان رمزاً عربياً كبيراً في عصره. لذلك فإن معظم المؤرخين والباحثين، يعدّون عصر المأمون نهاية الهجوم الفارسي العارم على العرب والعروبة^(٤٨)، فهو الذي أضعف هذا الهجوم بوسائله الهادئة وطرقه الناجحة وقوة شكيمته وعزيمته في المضى على الطريق العربي الواضح، الذي كان يعرف تماماً أنه المفتاح الأساسي للسير في سبيل تطوير العلوم والمناهج الفكرية العامة، التي تتأى بالناس عن الخلافات الهدامة، وبالتالي تعمل على إزابتهم في بوتقة العروبة الخالصة.

أما في العصر العباسي الثاني، فقد كان الأمر مختلفاً تماماً، فقد سيطر الغرباء من ترك وسلاجقة وديلم على مؤسسة القرار العربي المتمثلة بالخلافة، التي أصبحت خلافة مقهورة ومغلوبة على أمرها، مما أدى إلى ضعف الدولة العربية وانقسامها إلى عدة دويلات عرقية وطائفية هزيلة، ولكن ظهور بعض هذه الدويلات، ارتبط ارتباطاً

كبيراً بالحرص على المصلحة العربية العليا، كما الأمر في دولة الحمدانيين والعقيليين بحلب في القرن الرابع والخامس الهجريين.

والاستثناء في هذا العصر هم الفاطميون، الذين حاولوا التصدي لحركة الغرباء المتربصة بالمصالح العربية العليا، فقد تكونت لديهم قناعة راسخة هي أن الحكم لا يصلح في المنطقة العربية، إلا إذا شعر الناس بالعدل والمساواة، فسمحوا للجميع أن يعملوا بحرية كبيرة، وبخاصة في مجال العلم والبحث فأصبح للعلماء في عصرهم حريات واسعة في قول ما يريدون في كل مجالات العلم، فحدث جزء كبير من التفاعل والانسجام بين الأفكار، مما ساعد على ظهور مؤلفات علمية على درجة كبيرة من الجدة والأهمية في موضوعها ومضمونها، وبخاصة مؤلفات ابن سينا في الطب والفلسفة والعلوم الأخرى، ومؤلفات الرازي والفارابي بالفلسفة وغيرها، ومؤلفات علي ابن يونس في الهيئة، ومؤلفات ابن الهيثم في البصريات، ومؤلفات علي ابن رضوان في الطب، ومؤلفات إخوان الصفا في علوم الطبيعة^(٤٩).

كان الفاطميون يقصدون من هذه السياسة الحكيمة، تعريب كل شيء في المجتمع دون أية ضغوط أو أعمال قسرية فأصبح المفهوم العربي هو المفهوم السائد في المجتمع، فاختفت في مصطلحاتهم السياسية تسميات عرب وغير عرب، وضعفت الفوارق بين أصحاب الديانات الأخرى والمسلمين، فشارك أهل الذمة في جميع وجوه النشاط العلمي مع العلماء المسلمين العرب دون أية عوائق على الإطلاق، وكذلك كان الأمر في الإدارة وغيرها فازدهرت العلوم العربية ازدهاراً لافتاً نتيجة السياسة الفاطمية ذات الوجه العربي الساطع^(٥٠).

إلى جانب الفاطميين فقد حمل مهمة إعادة المركب العربي في هذا العصر إلى مساره قلة قليلة من الخلفاء العباسيين، فحاولوا التعاون مع جهات متفرقة في خارج المنطقة العربية وفي داخلها، نذكر منهم الخليفة العربي الشجاع الناصر لدين الله العباسي^(٥١)،

الذي حاول أن ينهض بدولته المتعثرة، شجعه على ذلك طموحه العربي الواسع في إعادة الدولة العربية إلى سابق عهدها في العصر العباسي الأول، مستغلاً في ذلك ضعف الأتراك السلاجقة، الذين أنهكوا القوة العربية حتى جعلوا منها قوة غير مؤثرة في الأحداث الجارية، ولكنه فوجئ بخطر الدولة الخوارزمية، التي كانت تسيطر على إيران تحت قيادة السلطان علاء الدين خوارزم شاه، الذي كان يطمح في وراثة السلاجقة بالسيطرة على بغداد، ذلك لأن الخليفة العباسي الناصر لدين الله، رفض أن يكون تابعاً له، وقابل طلباته بأنفة وترفع واحتقار^(٥٢).

لذلك فقد تعاون الخليفة العباسي مع الجوار، وبخاصة مع الفاطميين، الذين كانت منهم مجموعة تسيطر على شمال غرب إيران، وهي من أهم المجموعات المؤثرة على الدولة الخوارزمية، ذلك لأنه وجد في هذه المجموعة زخماً عربياً خالصاً من كل الشوائب، فتعاون مع مجموعة من الفدائيين، الذين كانوا يستخدمون لتنفيذ مهمات صعبة وخطيرة، وبوساطتهم تمكن من قتل أبرز قادة الخوارزمية المعادين للعرب وهو (أغلمش)^(٥٣).

وهنا ينبغي أن نشير إلى أن المجموعة الفاطمية في شمال غرب إيران، كانت قبل ذلك قد انبرت لحرب السلاجقة الأتراك، الذين شكّلوا الخطر الأكبر على المشروع العربي العام في هذا العصر، ونتيجة لهذه الحرب ضعفت الدولة السلجوقية، مما ساعد الخليفة العباسي الناصر لدين الله من التحرك لإحياء المجد العربي، الذي كان للعباسيين في عصرهم الأول، ذلك لأن عظماء الدولة السلجوقية وعقولها المدبرة، سقطوا صرعى نتيجة ضربات الفدائيين الفاطميين، الذين ألقوا الرعب في قلوب كل الغرباء الذين غطوا تعصبهم القومي والعنصري بثوب الحرص على إحياء السنة وما إلى ذلك من أوهام لا تمت إلى الحقيقة بصلة^(٥٤). وبخاصة السلاجقة والخوارزمية، الذين لجؤوا إلى وسيلة التودّد إلى الفاطميين في العديد من المناسبات، الأمر الذي لا يكل دلالة

واضحة على الزخم العربي الجارف في نفوس هؤلاء، وهو الذي جعلهم يقفون بحزم ضدّ جميع الغرباء المتربصين بالمصلحة العربية.

هذا وقد اعتمد الخليفة الناصر في سبيل مشروعه العربي على مجموعة من التنظيمات الشعبية العربية، عرفت في العصر العباسي الثاني بالشطّار والعيارين وبالفتوة، وهي تنظيمات ظهرت ضدّ السيطرة البويهية على السلطة العربية، واتسع نطاقها لمحاربة الغرباء والتجار، الذين تعاونوا لسلب كل الثروات العربية، وبالتالي لإضعاف كل وجود الغرباء. ومن جهة أخرى فقد كانت تروّج في صفوف الناس للقيم العربية السامية لمواجهة الغرباء، الذين ابتعدوا عن كل منقبة، ولم يتركوا متبلة إلا واقترفوها، مما جعل الخليفة الناصر يقبل على التعاون معهم إلى أقصى الحدود حتى صار رئيس هذه التنظيمات، وكان له دور بالغ الأهمية في جميع صفوفها وحل كل إشكالاتها وخلافاتها، وتوسيع مدى انتشارها خارج مدينة بغداد فوصلت إلى بلاد الشام ومصر، وكان من أهم توجيهاته لهذه التنظيمات، أن يحاربوا كل خلاف مذهبي ديني، ولهذا عزّز صلته بالعلماء من العرب، لأنه وجد فيهم الوسيلة الناجحة للتخلص من الخلافات المذهبية وغيرها، لأن الخلاص من السيطرة الأجنبية في نظره، لا يمكن أن يتحقق في ظل التشنّت والتدابير^(٥٥).

ويمكن أن نقول في ختام هذه الفقرة: إن الاعتماد على العنصر التركي وإهمال العنصر العربي منذ خلافة المعتصم، أدّى إلى حالة الضعف والانهيال، التي سادت في العصر العباسي الثاني وأدّت إلى سقوط الدولة العربية على يد المغول في أوائل النصف الثاني من القرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي كذلك فإن استفاقة الخلفاء العباسيين في العصر العباسي الأول، أدّت إلى الازدهار الحضاري العام، الذي عمّ نفعه كافة بلدان الدنيا لأنها كانت استفاقة عربية شجاعة.

أما في المغرب والأندلس فقد سارت عملية التعريب مسيرة متباعدة بسبب الظروف السياسية والاجتماعية، التي كانت تظهر على السطح بين الفينة والأخرى. وعلى

الرغم من الصعوبات الجمة، التي رافقت هذه العملية فإنها بقيت مستمرة بنجاح، ساعد على ذلك سيادة مفهوم عام في المغرب والأندلس، هو أن الإسلام كعقيدة ودين يساوي في نظر الجميع مفهوم العروبة، وتطور هذا المفهوم حتى أصبح الإسلام يعني العروبة حتماً والعكس صحيح، ودليل ذلك أن معظم الحركات المناوئة للعرب، كانت تبتعد عن إثارة قضية الدين إلا في حالات نادرة.

ومن حسن حظ عملية التعريب في المغرب والأندلس، أن الحكام في هذه البلاد كانوا متحمسين جداً لإنجاز هذه العملية بأجلى صورها، وبخاصة في الأندلس، التي حكمها الأمويون لفترة طويلة، والذين تميزوا كما أجدادهم في المشرق بالتمسك بضرورة سيادة الحكم على أساس عربي واضح المعالم، ذلك لأنهم كانوا يؤمنون بأن الوجود العربي بالأندلس لن يستمر إلا من خلال الاعتماد على جبهة عربية موحدة الجهود والاستراتيجيات. وبالفعل فقد نجح الأمويون نجاحاً باهراً بتجذير الثقافة العربية على كافة الصعد، حتى أصبحت هذه الثقافة ثقافة عالمية، شملت كافة القارة الأوروبية، وذلك ابتداءً من عصر الخلافة الأموية بالأندلس^(٥٦)، وكان عنوان أي تحضر أو تقدم علمي، يرتبط ارتباطاً وثيقاً بهذه الثقافة المتقدمة. كل ذلك جعل الإسبان وبقية الأوروبيين وكل العناصر الأخرى في المجتمع الإسباني العربي، يقبلون على دراسة هذه الثقافة على الرغم من كراهيتهم وتعصبهم ضد أصحابها من العرب.

ففي المغرب الكبير بدأت حركة التعريب بوصول عقبة بن نافع إليه وبناء مدينة القيروان، لكن عقبة نسي أن المغاربة هم عرب كالمشاركة فعاملهم بقسوة، ولم يساو بينهم وبين المشاركة، فتألبوا ضده في حرب سقط فيها شهيداً سنة ٦٥هـ/٦٨٥م^(٥٧). ولكن أبا المهاجر دينار الذي خلفه في القيادة لفترة معينة، استفاد من تجربة عقبة غير الموفقة، فأعلن سياسة عامة تقوم على العدل والمساواة بين المغاربة والمشاركة، على اعتبار أن الجميع من أصول عربية، فتعززت القوة العربية، وشكلت جبهة قوية في

وجه المتربصين بالمشروع العربي، ولاسيما البيزنطيون واليهود. وكان من نتيجة هذه السياسة الناجحة، أن دخلت مجموعة كبيرة في الإسلام تحت المظلة العربية^(٥٨).

وحينما كلف حسان بن النعمان الغساني بقيادة عملية فتح المغرب، تابع انتهاج سياسة المواءمة والمساواة بين المشاركة والمغاربة على أساس عربي متين في التوجه والرؤى، مما ساعد على تحقيق إنجازات كبيرة في المغرب الكبير، يضاف إلى ذلك أنه كان يرى أن أخطر ما يتهدد المشروع العربي آنذاك، هو الوجود البيزنطي واليهودي فركز بشكل خاص على تدمير مدينة قرطاجة، وإقامة مدينة تونس إلى جوارها، ذلك لأنه كان يعدّ قرطاجة قاعدة بيزنطية، سببت الكثير من المصائب والخسائر التي توافقت مع عملية فتح المغرب. وكان قبل ذلك قد توجه إلى تقويض الوجود اليهودي بمنطقة الأوراس بجنوب شرق الجزائر^(٥٩).

وحينما تولى موسى بن نصير ولاية المغرب الكبير، تابع السير على طريق حسان ابن النعمان في الحرص على استمرارية عملية التعريب، فساوى بين المغاربة والمشاركة على كافة الصعد، والدليل على ذلك أنه لما قرّر فتح الأندلس، جعل على رأس الجيش الفاتح أحد المغاربة، وهو طارق بن زياد، على الرغم من وجود شخصيات كبيرة من العرب المشاركة، كانوا أجدر بكثير من طارق بن زياد، لكن موسى بن نصير كان يريد من خلال ذلك، أن يشعر المغاربة بأنهم عرب، ينبغي عليهم أن يتحملوا المسؤولية على قدم المساواة مع العرب المشاركة في كل الذي كان يجري في تلك الفترة. فقد حرص طارق بن زياد على تعريب الأندلس منذ البداية، فقد أحاط قواته العسكرية بسور في منطقة جبل طارق، سماه سور العرب، الذي قال عنه ابن بطوطة: إنه رأى بأم عينه بقايا هذا السور^(٦٠).

وقد كان الطابع العربي بالأندلس بارزاً في عصر الولاة في كل المجالات وبخاصة في المجال السياسي. فقد أظهر الولاة الأندلسيون تمسكاً لافتاً بقضية الاعتماد على العنصر

العربي وتقويته بكل الوسائل، وقد برز ذلك واضحاً في موقف الصميل بن حاتم زعيم القيسية، فقد التقى بأحد المعلمين بقرطبة وهو يعلم التلاميذ الآية القرآنية القائلة: "وتلك الأيام نداولها بين الناس" فاحتج على المعلم وقال له بأن الآية المذكورة ينبغي أن تدرس على النحو الآتي: "وتلك الأيام نداولها بين العرب"^(٦١)، ويفهم من هذه الحادثة، أن العرب لم يكونوا في تلك الفترة يسمحون أن تشاركهم أية مجموعة لا تتحدّر من أصول عربية.

من جهة أخرى فقد وجد والي الأندلس أبو الخطار حسان بن ضرار الكلبي أنه من الضروري لاستمرار البقاء العربي بالأندلس، أن يوزع العرب الذين كانوا في معظمهم بقرطبة على الكور والمناطق الأندلسية، من أجل تعزيز الوجود العربي في مناطق هامة غير العاصمة، فتوضع جند حمص بأشبيلية وجند الشام بغرناطة، وجند الأردن بمالقة، وجند مصر بتدمير وباجة^(٦٢)، وقد كان لهذا التوزيع أثره البالغ في تعريب هذه المناطق بسرعة كبيرة، ذلك لأن عناصر هذه الأجناد كانوا برمتهم من العرب، الذين كانوا يشتعلون حماساً لنشر ثقافتهم العربية في إسبانية تمهيداً لدخول بقية البلدان الأوروبية المجاورة.

وهنا ينبغي أن نشير إلى أن الخليفة الأموي عمر بن عبد العزيز، كان بينته في الفترة الأولى من حكمه القصير، أن يأمر عرب الأندلس بالعودة إلى المغرب، خوفاً عليهم من أن يتعرضوا للمخاطر، لكنه تراجع عن ذلك، حينما تأكد أن حالتهم العامة مستقرة، وأمر على أثر ذلك بتوزيع مساحات هامة من الأرض على العناصر العربية في عدد من الأمكنة بالأندلس، ذلك لأنه كان يؤمن على الرغم من توجهه الإسلامي، الذي لا يفرق بين عربي وغير عربي، كان يؤمن بأن العرب هم الذين يستطيعون أن يصنعوا مجد الدولة العربية في أي مكان يتواجدون فيه^(٦٣).

أما في عصر الإمارة الأموية بالأندلس، فقد كان الأمر مدعاة للفخر والاعتزاز، فقد وقف الأمراء الأمويون في وجه كل العقبات التي تحدّ من انتشار ظاهرة التعريب في الأندلس، فقد أعلن عبد الرحمن الداخل أول الأمراء في هذا العصر، إن الولاء بالأندلس هو فقط للقانون الذي يساوي بين الناس في الحقوق والواجبات^(١٤)، مما أدّى إلى إقدام مجموعة كبيرة من الإسبان على اعتناق الإسلام، والإقبال على الثقافة العربية بكل ألوانها وأشكالها ومعطياتها، وهي مرحلة متقدمة للدولة العربية بالأندلس، وإنجاز عظيم لسياستها العربية الواضحة، التي اعتمدت منهج الاحترام للآخر، ولعل من أبرز عوامل هذه السياسة أنها تركت الحرية للجميع في اختيار عقائدهم على النحو الذي يريدونه، ذلك لأن القائمين على إدارة الدولة العربية، كانوا يعرفون تماماً أن هذه السياسة ستؤدي في نهاية الأمر إلى مزيد من النجاح على طريق تعزيز أركان الدولة العربية. فبادرت مجموعة كبيرة من الإسبان إلى اعتناق الدين الإسلامي، وعرفت هذه المجموعة في التاريخ الأندلسي بالمولدين. كما بادرت مجموعة أخرى واسعة الانتشار من الإسبان، على البقاء على دينها المسيحي، والتخلق بالثقافة العربية كبديل عن اللاتينية، وعرفت هذه المجموعة في التاريخ الأندلسي بالمستعربين، وهي مجموعة شغلت دوراً إيجابياً في المجتمع العربي الأندلسي، ذلك لأنها كانت ترى في الدولة العربية بالأندلس استمراراً لحياتها وأمنها وسلامتها مصالحها، وهي نقطة إيجابية عالية المستوى، وصلت إليها حركة التعريب في الأندلس، ودليل ذلك أن مجموعة من رجال الدين الإسبان شعروا بأن ذلك سيؤدي إلى تدمير ونسيان الثقافة اللاتينية بعد أن وجدوا أن المستعربين قطعوا شوطاً بعيداً في دراسة العلوم والآداب العربية، واشتهر عدد كبير منهم في هذه المجالات، فنظم رجال الدين المسيحيين حملة مناهضة للثقافة العربية والإسبان، الذين انكبوا عليها فتعربوا لغة وثقافة، وتزعّم هذه الحملة الراهب (إيلوخيو)، الذي ركّز على ضرورة التمسك باللغة اللاتينية والعزوف نهائياً عن اللغة العربية، ولكن محاولاته انتهت إلى الفشل، ذلك أن تأثير حركة التعريب كان كبيراً في

صفوف الإسبان، فتحوّلت الحركة من معارضة حركة التعريب، إلى هجوم عنيف على الدين الإسلامي، وكان المحرضون على معاداة الإسلام، يغرون الناس بأن كل من يعادي الإسلام ويموت على هذا الطريق فهو شهيد، لذلك فقد عرفت هذه الحملة بحركة الاستشهاد، لكن العرب سموها حركة الاستخفاف، لأن المشتركين فيها استخفوا بكل المقدسات الإسلامية، وقد بدأت سنة ٢٣٤هـ/٨٤٩م، وانتهت في سنة ٢٣٧هـ/٨٥٢م^(٦٥).

وفي عصر الخلافة بالأندلس، سارت عملية التعريب بوتيرة عالية، ذلك لأن الخلفاء الأمويين الأوائل^(٦٦)، حافظوا على زخمهم التعريبي العالمي، ولم يسمحوا لرجال الدين في التدخل في أمور السياسة ومنهج الحكم، لكن الحاجب محمد بن أبي عامر، الذي سيطر على الخلافة بالأندلس بعد وفاة الحكم المستنصر^(٦٧)، أخلّ بهذا النظام وسمح للفقهاء بالتدخل في بعض الشؤون العامة، ومع ذلك فإن هذا التدخل لم يؤد إلى سيطرة مطلقة على القرار السياسي، وقد فعل ذلك، ليس حباً منه في رجال الدين أو حرصاً على الدين نفسه، بل فعل ذلك لدعم مسيرة حكمه ووجوده على رأس الحكم، فهو كما هو معروف كان على الدوام يشعر بأنه دُخِل على الحكم ومغتصب له بصورة غير شرعية، فحتى يحسّن صورته في نظر الناس، لجأ إلى وسيلة التقرب من رجال الدين، الذين دعموه وبرّروا ما قام به على عاداتهم حرصاً على مصالحهم ولن يترك لهم العنان على الغارب إلا في مسألة واحدة، تجسّدت في أنه أمر بإحراق كل الكتب المتعلقة بعلوم الأوائل من فلسفة ومنطق وإلهيات، وما يتعلق بها وهي علوم الأوائل من فلسفة ومنطق وإلهيات وما يتعلق بها من علوم، كان رجال الدين يعدونها خطراً على الدين، لقصور واضح في عقولهم وتفكيرهم العام، فأدّى ذلك إلى خسارة كبيرة على صعيد حركة التعريب، التي كانت العلوم بعامة مادتها الأساسية وسيبقى ذلك نقطة حالكة السواد في تاريخ محمد بن أبي عامر ورجال الدين على حد سواء^(٦٨).

ورغم الإيجابيات التي حدثت في عصر الخلافة لصالح حركة التعريب، فإن بعض المشاكل ظهرت في المجتمع الأندلسي، ولكنها لم تستطع أن تؤثر كما كان مخططاً لها، وكان المتسبب في هذه المشاكل هم الصقالبة، الذين استخدمهم الخلفاء الأمويون بكثرة لكنهم لم يبقوا في إطار مهامهم الرئيسة وهي أعمال الخدمة العامة في الدولة العربية، بل تطوروا مثلهم في ذلك مثل كل الفئات في المجتمع الأندلسي، وقام أحدهم وهو حبيب الصقلبي بتأليف كتابه، نوّه فيه بمناقب وفضائل الصقالبة، وذكره ابن بسام في كتاب الذخيرة، ولفت إلى أنه قرأ مضمونه جيداً، فقال: إنه يحتوي على مجموعة كبيرة من أخبار الصقالبة العامة، وبعض إنتاجهم في الشعر والأدب، ورفض ابن بسام ذكر أي شيء من هذا الشعر تعصباً منه لعروبتّه، مما يوحي أن الكتاب، كان قد وضع للتفاخر والتباهي في الآداب الصقلبية وإظهارها بمظهر التفوق على الآداب العربية، وهذا ما حدا بالمستشرق الألماني جواد تسيهر إلى القول: إن هذا الكتاب يمثل بداية الحركة الشعوبية في إسبانية العربية^(٦٩).

ويروج بعض المستشرقين لمقولة مفادها: أن الخلفاء الأمويين بالأندلس وبخاصة الناصر لدين الله، كانوا في مسألة الاعتماد على الصقالبة إضعافاً للنفوذ العربي، لكن هذا القول لا يصحّ على فترة حكم الخلفاء الأمويين، الذين لم يكونوا يخافون من شيء، والدليل على ذلك أنهم فرضوا أنفسهم في كل المجالات، وسيروا الأمور لمصلحة الدولة العربية، وما اعتمداهم على الصقالبة واليهود والإسبان سوى نهج طبيعي لسياستهم العامة، التي كانت تهدف إلى صنع حالة من الهدوء والاستقرار من أجل الانطلاق باتجاه تحقيق مشروعهم الحضاري العربي، ولكن الذي حدث أن العرب توجسوا خيفة من قضية اعتماد الخليفة الناصر لدين الله على بعض الصقالبة في بعض المواقع القيادية، كما حدث في معركة الخندق سنة ٣٢٧هـ/٩٣٩م، بين العرب والإسبان، وقد هزم العرب في هذه المعركة، وقيل: إن سبب الهزيمة في المقام الأول، يعود إلى أن العرب الذين شاركوا فيها، لم يقاتلوا كما ينبغي، ذلك لأنهم تضايقوا من

تعيين جده الصقلي قائدًا للجيش، وهذا يدل على أن الشعور العربي كان في أوج قوته وتوقده^(٧٠). وقد تجلّى ذلك الشعور في أصدق معانيه، حينما تخلص المنصور محمد بن أبي عامر من الصقالبة نهائياً، لأنه كان يرى فيهم خطراً على الدولة العربية بعد أن تدخلوا في قضية تعيين المغيرة بن عبد الرحمن الناصر خليفة بعد وفاة الخليفة الحكم المستنصر سنة ٣٦٦هـ/٩٧٧م^(٧١).

من ناحية أخرى فقد اهتم المنصور محمد بن أبي عامر بتعريب الجيش، فألغى كل الامتيازات القبلية، وساوى بين جميع عناصر الجيش في العطاء والقيادة، وأصبح الجميع تحت راية واحدة يعملون من أجلها هي الراية العربية، وقد تمكّن المنصور بواسطة هذا الجيش من تنفيذ أكثر من خمسين غزوة، كان النجاح حليفه فيها^(٧٢).

وعلى الرغم من تمزق وحدة الأندلس بعد سقوط الخلافة الأموية، وظهور دويلات عديدة مستقلة، فإن هذه الدويلات ظلت مثابرة على السعي في طريق التعريب، وحاولت عبثاً أن تعيد وحدة الأندلس. وكان في طليعة هذه الدويلات دويلة إشبيلية بقيادة المعتمد بن عباد، الذي حاول أن يفعل شيئاً ضد حركة الاسترداد الإسبانية، وتجسّد ذلك في تعاونه مع المرابطين رغم معرفته، بأنهم لن يبقوه في الحكم إذا دخلوا الأندلس وقد قال في ذلك: "رعي الجمال عندي خير من رعي الخنازير"^(٧٣)، وهو يشير بذلك إلى المرابطين، الذين يعتمدون على الجمال، والإسبان الذين يهتمون بتربية الخنازير.

أما في الجانب المقابل للأندلس وهو المغرب الكبير فقد كان الفاطميون الذين عاصروا الخلافة بالأندلس، من أحرص الناس أن يسود مفهوم التعريب في المغرب الكبير، على أساس عربي واضح الرؤى، وكان ذلك ضمن مشروعهم العربي الكبير، الذي كانوا يحلمون في تحقيقه في ضم الأندلس والمشرق إلى المغرب، وإعلان الدولة العربية الواحدة، فابتعدوا عن الخلافات الدينية والعرقية، وأعلنوا حرية واسعة في

البحث العلمي في كافة المجالات العلمية، ولكن حلمهم لم يتحقق، لأن السواد الأعظم من العرب وقفوا ضدّ الدولة الفاطمية، منطلقين في ذلك من خلافات مذهبية بغضبة^(٧٤).

لكن الذي فشل الفاطميون فيه في الجزء الغربي من الوطن العربي الكبير نجح المرابطون في إنجازه، وهو وحدة المغرب والأندلس، التي ساعدت على إنقاذ الوضع العربي بالأندلس من الانهيار، واعتمدوا على مذهب واحد هو المذهب المالكي، لأن الإسلام في عرفهم هو دين قومي عربي، ينبغي أن لا يخضع لأي شكل من أشكال الانقسام والتجزؤ. ومن الطريف أن أعداءهم قلدوهم في هذا المجال، وهم الإسبان الذين شكلوا قوام حركة الاسترداد بالأندلس، فقد أصروا أن يكون المذهب الكاثوليكي هو المظهر الوحيد في كل الممالك الإسبانية المناوئة للعرب، وهي قشتالة وليون وبرشلونة وغيرها، لأن المذهب الكاثوليكي في نظرهم، كان يمثل مذهباً قومياً ووطنياً لكل الإسبان بدون استثناء^(٧٥).

وفي عصر الموحدين^(٧٦)، بقيت وحدة المغرب والأندلس قوية، وكان عصرهم من أهم عصور العرب على الإطلاق بعد عصر الخلافة الأموية، ذلك لأن حريات واسعة النطاق سادت في هذا العصر، مما أفسح المجال أمام العلماء للاهتمام بالعلوم ذات التأثير الكبير في المجتمع، وبخاصة العلوم الفلسفية العقلانية، التي مثلها بجدارة وقوة العالم العربي المبدع ابن رشد.

هذا وعلى مدى سنين طويلة بدءاً من النصف الثاني من القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي، ساهمت مجموعة من القبائل العربية مثل هلال وسليم وغيرها، وهي القبائل العربية التي أرسلها الفاطميون إلى المغرب الكبير كي تنوب عنهم في إدارته، ساهمت هذه القبائل بأكثر قسط من أسس ودعائم حركة التعريب في المغرب الكبير بخاصة، فقد ساعدت بشكل خاص على تقوية اللغة العربية ونشرها في

كل المغرب الكبير عبر قرون طويلة، كذلك فقد نقلت هذه القبائل إلى المغرب الكبير الكثير من العادات والتقاليد العربية الأصيلة، التي كانت منتشرة في المشرق العربي^(٧٧).

أما في العصر المملوكي فقد اختلف أمر حركة التعريب عن بقية العصور، التي تناولناها في هذا البحث حتى الآن ذلك أن المماليك حرصوا منذ بداية حكمهم في مصر والشام، على استبعاد العنصر العربي عن مفاصل القيادة والقرار، ولاسيما في السلطنة وفي قيادة الولايات (النيابات) وفي قيادة الجيش، وأعطوا للعرب بعض المناصب الإدارية، التي لا تؤثر في استمرارية وضمأن وجودهم في الحكم، مثل المناصب القضائية، والتدريسية وما شابه ذلك.

ومع استمرار حالة الإقصاء والإبعاد عن المناصب الرفيعة، شعر العرب في هذا العصر غير الميمون، أنهم بحاجة لأن يفعلوا شيئاً في مواجهة تسلط المماليك وتجذير بذور التعريب، حتى لا تذوب المنطقة لصالح الآخرين، وهذا ما حصل على صعيد العلوم إلى درجة يمكن معها القول: إن العرب إذا كانوا قد أبعدوا عن حكم بلادهم في مصر والشام، فإنهم حضروا بقوة بالقياس على حضارة ذلك الزمن وعلومه على صعيد العلم، والفكر، والثقافة، وما إلى ذلك، وكان الأمر قد أعد بعناية فائقة فتخصص العرب بالعلوم والحضارة، وتخصص المماليك الغرباء بالقيادة والسياسة، ولكن الفرق بين الطرفين هو أن العرب لم يمنعوا المماليك من الأخذ بأسباب العلم والتخلق به، في حين أن المماليك منعوا العرب من ممارسة السياسة، وأبعدوهم بقوة عن مراكز القيادة، ذلك لأنهم كانوا يعرفون مدى كراهية العرب لتسلطهم واستئثارهم بمقررات البلاد. وهذا ما جعل مجموعة من العلماء العرب المتفوقين يلجؤون إلى سلوك طريق التأليف، الذي كان غزيراً في هذا العصر إلى درجة التميز والوضوح، ولعل في مقدمة هذه المؤلفات، التي حرص أصحابها أن يضمونها ما استطاعوا من تراث العرب وإنتاجهم العلمي الحضاري يمكن في هذا المجال أن نذكر: موسوعة ابن

منظور المسماة (لسان العرب)، وهي موسوعة لغوية ضخمة، اشتملت على العديد من الضروب الأدبية وبلغت مواد هذه الموسوعة ثمانين ألف مادة^(٧٨)، وموسوعة (نهاية الأرب في فنون الأدب للنويري) التي احتوت على عدد من الموضوعات النظرية والتطبيقية، صاغها النويري بأسلوب أدبي جميل يمتاز بالسهولة ويسر الفهم من قبل القراء^(٧٩)، وموسوعة (مسالك الأبصار في ممالك الأمصار للعمري)، وهي موسوعة شاملة احتوت على موضوعات جمة من العلوم الإنسانية^(٨٠)، وموسوعة (صبح الأعشى في صناعة الإنشا للقلقشندي)، وهي موسوعة ضخمة وشاملة، وتتسم بالأصالة في مجال الأدب في العصر المملوكي^(٨١).

هذا وقد ساعدت هذه الموسوعات على حفظ جزء كبير من إنتاج العرب الحضاري، الذي واجهته الكثير من المصاعب والأخطار في العصر المملوكي، لذلك فليس مستبعداً أن يكون أصحاب هذه الموسوعات، قد حرصوا على حفظ ما يمكن حفظه من تراث الأمة وحضارتها، يحذوهم في ذلك محبتهم لأمتهم ووفائهم لعروبته وأوطانهم، في وقت كان العرب فيه مبعدون عن مراكز التأثير في صنع القرار السياسي في مصر والشام^(٨٢).

كما تجسدت الحالة العربية المتضررة من الوجود المملوكي في رأس الهرم السياسي في الكثير من التحركات والمحاولات، التي عبرت بوضوح عن رأي العرب في الحالة التي كانت قائمة في العصر المملوكي، ولعل في طليعة هذه التحركات العربية ضد السلطة المملوكية، ما حدث في سنة ٧٧٥هـ/١٣٧٤م، حينما تجرأ أحد المغاربة الذين لا يذكر المقرئ اسمهم، إلى إرجاع سوء الحالة الاقتصادية وتفاقم الأمور وتدهورها إلى السلطان المملوكي، الذي لا تهمه الأكثرية العربية على الإطلاق وأخذ هذا المغربي يدعو الناس بمدينة القاهرة للتخلص من السلطان المملوكي في مكان قريب من القلعة، وصار يحرض الناس علانية على قتل السلطان والتخلص منه، لأن في ذلك مفتاح حل الأزمة التي تعاني منها البلاد^(٨٣).

ومن ذلك أيضاً أن حدث تحالف بين بعض زعماء البدو (العربان) وبعض الشخصيات العربية، التي ضاقت ذرعاً بالوجود المملوكي وغياب العرب عن حكم بلادهم وإدارتها وتوجيهها إلى ما ينفع أهلها في حاضرهم ومستقبلهم ففي سنة ٧٩٦هـ/ ١٣٩٤م، اتفق جمال الدين محمد العنابي مع الأمير البدوي موسى بن محمد بن عيسى، الذي كان مسجوناً بأمر السلطان برقوق، وكان الاتفاق أن يقوم هذا الأمير بإبلاغ جميع أنصاره، بأن يحضروا إلى مكان قريب من القاهرة، وينتظروا حتى يخرج السلطان، الذي كان على وشك الخروج إلى الشام، ومن ثم يهاجموا القاهرة، يدعمهم خمسمائة رجل بقيادة العنابي من داخلها، وإذا نجحت المحاولة يعلن العنابي نفسه خليفة، لكن الأمير السجين رجع في أقواله، وسلم مذكرة العنابي إلى من أوصلها إلى السلطان المملوكي، الذي أمر باعتقال العنابي، وصدر الأمر السلطاني بقتله^(٨٤)، وبذلك انتهت هذه المحاولة العربية الجريئة.

إلى جانب هذا فقد ظهرت في العصر المملوكي بعض التنظيمات الشعبية ذات التوجه العربي، وعملت طوال حياتها ضد السلطة المملوكية، ومن هذه التنظيمات تنظيم الحرافشة، الذي تكون مجموعة كبيرة من عامة أهل مصر والشام العرب الأصليين، وكان هدف هذه المجموعة معارضة تسلط المملوكي على مقدرات البلاد. لكن هذه المجموعة العربية لم تتمكن من تحقيق ما كانت تهدف إليه، وذلك بسبب فاعلية وقوة أداة القمع والبطش والتتكيل، التي استخدمتها السلطة المملوكية ضدها من جهة، وضعف التمويل العام لهذه المجموعة من جهة أخرى. وعلى الرغم من ذلك فقد استطاع الحرافشة أن يقضوا مضجع الحكم المملوكي إلى حد ما، وبالتالي فقد أظهرت حركتهم أنهم كانوا يتمتعون بشعور عربي ناضج وأصيل، كان يرفض أن يستخدم الإسلام كوسيلة لتبرير اغتصاب الحقوق العربية، والاعتداء عليها بشتى الوسائل^(٨٥).

كذلك فقد ظهرت منظمة شعبية عربية أخرى، عرفت بمنظمة الزعر، التي شكلت مجموعة كبيرة من سكان مصر والشام، وقد نشطت هذه المنظمة العربية في عصر

الدولة الجركسية المملوكية، هذا العصر الذي عمّت فيه الفوضى وكثرت المظالم والتجاوزات، وكان الخاسر الأكبر هو العنصر العربي، الذي أجبر على دفع الضرائب والإتاوات لتمويل مشاريع الممالك ومتطلباتهم، التي لم تكن ضرورية في معظم الأحيان.

وكانت مهمة تنظيم الزعر في المقام الأول، الدفاع عن حقوق العرب ومحاولة رفع الظلم عنهم، لكن هذه المهمة تعثرت إلى حد كبير بسبب تعاون رجال الدين مع المماليك ضدّ الزعر، وكذلك بسبب عدم التعاون وفقدان الخطة والبرمجة بين زعماء وتنظيم الزعر^(٨٦).

إضافة إلى كل ما تقدم فقد تجلت مظاهر التعريب في العصر المملوكي في صور أخرى متفرقة، لعل في مقدمتها وجود الخليفة العباسي بمدينة القاهرة، منذ أن اعتمده الظاهر بيبرس، كمحاولة منه لتدعيم حكم المماليك من خلال إظهاره أمام العرب بمظهر الغيور على الدين من خلال استمرار الخلافة العباسية، التي كانت طوال حياتها رمزاً عربياً لم يتمكن البويهيون أو الأتراك السلاجقة من إلغائها رغم قدراتهم على ذلك^(٨٧)، وقد بقي الخليفة العباسي المقيم بالقاهرة عاجزاً عن عمل شيء مؤثر لصالح الطبقة العربية على أرض الواقع، لكنه بقي رمزاً عربياً لا أكثر.

كذلك فقد تجلت مظاهر تعريبية أخرى في بعض الشخصيات العربية التي استلمت مناصب إدارية رفيعة المستوى، كما في مجال القضاء في كافة فروعها، وفي مجال الكتابة التي تمثلت في عصر المماليك بديوان الانتشاء، الذي كان من أهم الدواوين وأرفعها، وذلك لاتصاله الوثيق بالسلطان، من خلال مراسلاته الخاصة والعامة والخارجية والداخلية. وقد حاول بعض من تسلم هذه المناصب الإدارية أن يفعل شيئاً لعروبته وبلاده، ولكن هذا البعض كان قليل جداً، مما جعل تأثيره باهتاً لا يعول عليه^(٨٨).

ويمكن أن نضع التمردات التي كان يقوم بها البدو (الأعراب) في بلاد الشام ومصر ضد السلطة المملوكية، يمكن أن نضعها في سياق حركة التعريب في العصر المملوكي، على الرغم من أن هذه التمردات، لم تكن تمتلك البرامج والاستراتيجيات الواضحة، وافتقرت إلى التعاون الذي كان ضرورياً لإرباك السلطة المملوكية، بين الأعراب في مصر وإخوانهم في بلاد الشام، مما جعل السلطة المملوكية تعيش حالة مطمئنة من جهة الأعراب، الذين لم يتمكنوا من تكوين جبهة قوية تهدد الدولة المملوكية أو على الأقل تجبرها على إعطاء العرب قليلاً من حقوقهم الطبيعية^(٨٩).

ومع ذلك فإن ما حدث في العصر المملوكي على صعيد حركة التعريب، كان كبيراً بالقياس إلى حجم القوة المملوكية، وعدم السماح للعرب بتسلم أية مهمة أو وظيفة، يمكن أن تساعد في إعادة الوجه العربي كما يجب لمصر وبلاد الشام.

وبالجملة فإن حركة التعريب في العصور الوسطى، كانت هي الأقوى من بين الحركات على اختلاف أهدافها وتوجهاتها، والدليل على ذلك هو صمود الأمة العربية في وجه كل المتربصين بوجودها، فكانت هذه الأمة في كل المناسبات الصعبة قادرة على تضميد جراحها، وبناء ما تهدم من حضارتها، وإحياء ما درس من علومها بفعل الحقد والتعصب وقلة الوفاء من الآخرين. ويمكن القول: إنها من الأمم الحية بامتياز وإلا لما كانت استطاعت أن تصمد حتى اليوم، على الرغم من أن حرب الآخرين لها لم تنته حتى اليوم، وربما تستمر إلى زمن لن يكون قصيراً أبداً.

الهوامش

- (١) السيد عبد العزيز سالم، دراسات في تاريخ عصر ما قبل الإسلام، ج١، طبعة الإسكندرية ١٩٦٨، ص ٥٦٩ وما بعدها.
- (٢) المسعودي، مروج الذهب، ج١، ص ٢٧٨. ابن الأثير، الكامل، ج١، ص ٢٨٥.
- (٣) ابن كثير، البداية، ج٢، ص ٢٧٤.
- (٤) انظر عن ذلك، كتب السيرة النبوية وكتب التاريخ العام، التي اهتمت بهذه المسألة.
- (٥) انظر حول ذلك البلاذري، فتوح البلدان، ص ٧١ وما بعدها.
- (٦) تاريخ الطبري، ج٣، ص ١٩٩. السيوطي، تاريخ الخلفاء، طبعة بيروت، ١٩٦٩، ص ١٠. أحمد الشريف، دور الحجاز في الحياة السياسية العامة في القرنين الأول والثاني للهجرة، طبعة القاهرة، ١٩٦٨، ص ١١٢.
- (٧) ابن خلدون، المقدمة، ص ٣٣٨ وما بعدها. السيوطي، المصدر السابق، ص ٨ وما بعدها.
- (٨) أحمد الشريف، المرجع السابق، ص ١٧٤.
- (٩) تاريخ الطبري، ج٤، ص ٧٣.
- (١٠) البلاذري، فتوح البلدان، ج١، ص ١٦٢. تاريخ الطبري، ج٤، ص ١٥٥.
- (١١) ابن عبد الحكيم، فتوح مصر والمغرب، ص ٨٦ و ١٠٦ و ١٠٧.
- (١٢) تاريخ الطبري، ج٤، ص ١٨٤.

(١٣) السيد عبد العزيز سالم، تاريخ الإسكندرية وحضارتها في العصر الإسلامي، طبعة ثانية، الإسكندرية، ١٩٦٩، ص ٩٣.

(١٤) ابن الأثير، أسد الغابة، ج ٣، ص ٣٨١. وانظر أيضاً: إبراهيم سعيد وعلي أحمد، نهاية عظماء العرب في العصور الوسطى، طبعة دمشق ١٩٩٩، ص ٢٢ وما بعدها.

(١٥) إبراهيم سعيد وعلي أحمد، المرجع السابق، ص ٣٤.

(١٦) من أهم ما حدث هو انفصال المشرق عن المغرب والأندلس دون السعي إلى إعادة اللحمة بينهما.

(١٧) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج ٤، طبعة دار صادر، بيروت، ص ٥٢١. العدوي الأمويون والبيزنطيون، طبعة ثانية الدار القومية للطباعة والنشر، ص ٢١٦.

(١٨) انظر حول ذلك تفاصيل واسعة في تاريخ الطبري، ج ٧، ص ٣١٢، وتاريخ خليفة ابن خياط، القسم الثاني، ص ٥٦٦ وما بعدها.

(١٩) تاريخ الطبري، ج ٧، ص ١١٥.

(٢٠) انظر: ترجمة معاوية في الموسوعات العربية المختلفة. وانظر: علي أحمد وإبراهيم زعرور، تاريخ العصر الأموي السياسي والحضاري، طبعة جامعة دمشق، ٢٠٠٨، ص ٢٩ وما بعدها.

(٢١) انظر حول ذلك: محمد علي دبوز، تاريخ المغرب الكبير، ج ٢، طبعة القاهرة، ١٩٦٣، ص ١٧.

(٢٢) سعد زغلول عبد الحميد، تاريخ المغرب العربي، طبعة القاهرة، ١٩٦٥، ص ١٧.

- (٢٣) المقرئزي، المواعظ والاعتبار، ج٣، ص٥٩. الصولي، أدب الكتاب، ص١٩٢. البلاذري، فتوح البلدان، ج٥، ص٦٥.
- (٢٤) البلاذري، فتوح البلدان، ج١، ص٤٣ وما بعدها. تاريخ الطبري، ج٧، ص٣٦.
- (٢٥) المغرب الأقصى هو الأرض الممتدة من وادي ملوية إلى المحيط الأطلسي، ويتمثل اليوم بالمملكة المغربية.
- (٢٦) مؤلف مجهول، أخبار مجموعة في فتح الأندلس، طبعة مدريد، ١٨٦٧، ص٢٣. ابن عذاري، البيان المغرب، ص٥٩، الرقيق القيرواني، تاريخ إفريقية والمغرب، تحقيق المنجي الكعبي، طبعة تونس، ١٩٦٨، ص١١٥.
- (٢٧) كما فعل الترك الفرس في العصر العباسي، وكذلك السلاجقة والمماليك.
- (٢٨) كان ذلك في سنة ١٠١هـ، انظر: البلاذري، فتوح البلدان، ج٤، ص٥١٢ وما بعدها. تاريخ الطبري، ج٦، ص٥٧٠، وج٧، ص٣٦.
- (٢٩) امتد هذا العصر من سنة ١٣٢ إلى سنة ٦٥٦ هـ، وقد قسمه المؤرخون إلى قسمين العصر الأول الذي انتهى سنة ٢٤٧هـ، والعصر الثاني الذي انتهى في سنة ٦٥٦هـ بسقوط الدولة العباسية.
- (٣٠) من أكبر الدعاة في الدعوة العباسية التي نجحت في إسقاط الدولة الأموية وهو من خراسان. وقد اختير للعمل في هذه المنطقة لمعرفته طبيعتها العامة، وقد نجح في مهمته نجاحاً باهراً ساعد على وضع نهاية سريعة للدولة الأموية.
- (٣١) بدأ هذا العصر سنة ١١ وانتهى سنة ٤٠هـ.
- (٣٢) تاريخ الطبري، ج٩، ص١٠٦.

- (٣٣) الجهشيارى، الوزراء والكتاب، ص ٩٤.
- (٣٤) تاريخ الطبري، ج ٩، ص ١٥٤.
- (٣٥) تاريخ الطبري، ج ٩، ١٥٤. تاريخ يعقوبي، ج ٢، ص ١٠١ وما بعدها، مروج الذهب، ج ٣، ص ٢١٩ وما بعدها.
- (٣٦) عبد العزيز الدوري، مقدمة في التاريخ الاقتصادي العربي، طبعة بيروت، ١٩٦٨، ص ٦٦.
- (٣٧) ابن الجوزي، المنتظم، ج ٥، ص ١١٠ وما بعدها.
- (٣٨) المقرئزي، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، طبعة القاهرة، ١٣٢٦هـ، ص ١٩٠.
- (٣٩) تاريخ الطبري، ج ٩، ص ١٦٩. المسعودي، مروج الذهب، ج ٣، ص ٢٢٠. ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج ٦، ص ١٧. ابن خلكان، وفيات الأعيان، ١٦٠ حتى ٣١٩. المقدسي، أحسن التقاسيم إلى معرفة الأقاليم، ص ٣٢٤.
- (٤٠) الجاحظ، كتاب الحيوان، ج ١، طبعة القاهرة، ١٩٣٨، ص ٥٥.
- (٤١) هاملتون جب، التاريخ الإسلامي في العصور الوسطى، الترجمة العربية، طبعة المركز العربي للكتاب، دمشق، ص ١٦.
- (٤٢) هاملتون جب، المرجع السابق، ص ١٧ وما بعدها.
- (٤٣) هاملتون جب، المرجع السابق، ص ٢٠.
- (٤٤) ابن قتيبة، عيون الأخبار، ج ١، نشرة بروكلمان، ص ٤.
- (٤٥) حكم من سنة ١٧٠ إلى سنة ١٩٢هـ.

- (٤٦) الجهشباري، الوزراء والكتاب، ص ٢١١.
- (٤٧) تاريخ اليعقوبي، ج ٣، ص ١٦٦. المسعودي، مروج الذهب، ج ٣، ص ٣٠٧.
- (٤٨) بدأ هذا العصر في سنة ١٩٨ وانتهى في سنة ٢١٨هـ.
- (٤٩) هاملتون جب، المرجع السابق، ص ٣٠ وما بعدها وانظر أيضاً
- Rosem th al. the Muslim historigraply. Leyalem 1952. p171.
- (٥٠) هاملتون جب، المرجع السابق، ص ٢٥ وما بعدها.
- (٥١) شغل منصب الخلافة من سنة ٥٧٥ إلى سنة ٦٢٢هـ.
- (٥٢) تاريخ الجويني، ج ٢، ص ٩٦.
- (٥٣) النسوي، سيرة جلال الدين منكبرتي، ص ٥٢.
- (٥٤) Sanaulhah. Mauelaue. Fodil. The decline of the saliuqip empirie. P. 61. وانظر البنداري، دولة آل سلجوق، ص ٦٣.
- (٥٥) عبد العزيز الدوري، مقدمة في التاريخ الاقتصادي العربي، ص ٩٢ وما بعدها.
- (٥٦) بدأ عصر الخلافة بالأندلس سنة ٣١٦، وانتهى سنة ٤٢٢هـ.
- (٥٧) انظر عن ذلك: علي أحمد، تاريخ المغرب القديم والإسلامي، طبعة جامعة دمشق دمشق، ٢٠٠٧، ص ٢٨، وما بعدها.
- (٥٨) علي أحمد، المرجع السابق، ص ٢٩ وما بعدها.
- (٥٩) ابن عذارى، البيان المغرب، ج ١، ص ٣٤-٣٥. ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج ٤، ص ١٨١. المالكي، رياض النفوس، ص ٣٥.

- (٦٠) ابن بطوطة، الرحلة، ص .
- (٦١) ابن القوطية، تاريخ افتتاح الأندلس، ص ٦٣.
- (٦٢) مؤلف مجهول، أخبار مجموعة، ص ٣١. الحميري، الروض المعطار، ص ١٨١. المقرئ، نفح الطيب، ج ١، ص ١٥٥.
- (٦٣) ابن عذارى، البيان المغرب، ج ١، ص ٤٨. مؤلف مجهول، أخبار مجموعة، ص ٢٢ وما بعدها.
- (٦٤) العذري، ترصيع الأخبار، ص ٢٥. ابن الآبار، الحلة السيرة، ج ١، ص ٣٥. المقرئ، نفح الطيب، ج ٤، ص ٥٩.
- (٦٥) أحمد مختار العبادي، في تاريخ المغرب والأندلسي، ص ١٤٤ وما بعدها.
- (٦٦) هؤلاء الخلفاء هم: الناصر لدين الله، وابنه الحكم المستنصر.
- (٦٧) كانت وفاته سنة ٣٦٦هـ.
- (٦٨) ابن عذارى، البيان المغرب، ج ٢، ص ٢٥٧ وما بعدها. ابن الخطيب، أعمال الإعلام، ص ٧٨.
- (٦٩) أحمد مختار العبادي، المرجع السابق، ص ١٩٨.
- (٧٠) أحمد مختار العبادي، قيام دولة المماليك في مصر والشام، ص ٣٤ وما بعدها.
- (٧١) ابن عذارى، البيان المغرب، ج ٢، ص ٢٨٦.
- (٧٢) الطرطوشي، سراج الملوك، ص ٢٢٩. ابن الخطيب، أعمال الإعلام، ص ١٤. المقرئ، نفح الطيب، ج ١، ص ١٩٨.

- (٧٣) مؤلف مجهول، **الحلل الموشية**، نشر علوش، ص ٢٦ وما بعدها، السلاوي، **الاستقصا**، ج٢، ص ٣٥.
- (٧٤) انظر عن ذلك تفاصيل واسعة: ابن حوقل، **صورة الأرض**، ص ١٠٤ وما بعدها. ابن عذارى، **البيان المغرب**، ج١، ص ١٥٨. ابن القاضي، **جذوة الاقتباس**، ص ١١١ وما بعدها.
- (٧٥) ابن حوقل، **صورة الأرض**، ص ٥٦. أحمد مختار العبادي، **في تاريخ المغرب والأندلس**، ص ٢٩٢ وما بعدها.
- (٧٦) بدأ هذا العصر سنة ٥٤٣ هـ وانتهى سنة ٦٦٨ هـ.
- (٧٧) المقرئزي، **اتعاظ الحلفاء**، ص ٢٢٤. ابن خلدون، **العبر**، ج٦، ص ٢٧ وما بعدها. ابن الأثير، **الكامل في التاريخ**، ج١١، ص ١٢٥ وما بعدها.
- (٧٨) **مقدمة لسان العرب**، ج١، ص ٨ وما بعدها.
- (٧٩) السيوطي، **حسن المحاضرة**، ج١، ص ٥٥٦، **الأعلام**، للزركلي، ج١، ص ١٥٨.
- (٨٠) ابن فضل الله العمري، **مسالك الأبصار**، ج١، ص ٣١.
- (٨١) كراتشكوفسكي، **تاريخ الأدب الجغرافي العربي**، ج١، ص ٤٢٠.
- (٨٢) انظر تفاصيل واسعة: علي أحمد، **تاريخ العصر المملوكي في مصر والشام**، ص ١٣٧ وما بعدها.
- (٨٣) المقرئزي، **السلوك لمعرفة دول الملوك**، ج٣، قسم ١، ص ٢٢٦.
- (٨٤) المقرئزي، **السلوك لمعرفة دول الملوك**، ج٣، قسم ٣، ص ٥٩٤.
- (٨٥) علي أحمد، **تاريخ العصر المملوكي في مصر**، ص ٢٤٤.

- (٨٦) ابن طولون، مفاكهة الخلان، ج ١، ص ١٣٩ وما بعدها.
- (٨٧) ابن إياس، بدائع الزهور، ج ٢١، ص ٣١٣ وما بعدها.
- (٨٨) ابن إياس، المصدر السابق، ج ١، ص ٣١٧.
- (٨٩) المقرئزي، السلوك لمعرفة دول الملوك، ج ٣، قسم ٢، ص ٩١٠. ابن تغري
بردي، النجوم الزاهرة، ج ٨، ص ١٤٩.

المصادر والمراجع

- ابن الأبار، الحلة السيرة، تحقيق: حسين مؤنس، طبعة أولى، القاهرة، ١٩٦٣.
- ابن الأثير، الكامل في التاريخ، عدة أجزاء، طبعة دار صادر، بيروت.
- الأصفهاني (أبو الفرج)، الأغاني، طبعة بولاق، القاهرة، ١٩٧٠.
- بدر (أحمد)، دراسات في تاريخ الأندلس وحضارتها، طبعة دمشق، ١٩٦٩.
- البلاذري، أنساب الأشراف، طبعة غويتان، فتوح البلدان، طبعة دار النشر للجامعيين، بيروت، ١٩٥٧.
- برتولد شبولر، العالم الإسلامي في العصر المغولي، الترجمة العربية، طبعة دمشق، دار حسان، ١٩٨٢.
- ابن بسام (أبو الحسن الشنتريني)، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، طبعة القاهرة، ١٩٤٥.
- ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة في أخبار مصر والقاهرة، تحقيق جمال الدين الشيال+ فهم شلتوت، القاهرة، ١٩٧٢.
- التيجاني (أبو عبد الله محمد)، رحلة التيجاني، تحقيق حسين حسني عبد الوهاب، طبعة تونس، ١٩٥٨.
- ابن جبير، رحلة ابن جبير، طبعة بيروت، ١٩٤٩.
- الجهشيارى، الوزراء والكتاب.
- ابن الجوزي، سيرة عمر بن عبد العزيز، طبعة مصر، ١٣٣١هـ.

- حتي (فيليب) تاريخ العرب مطول، طبعة بيروت، ١٩٥٠.
- ابن حزم (علي بن أحمد)، الفصل في الملل والأهواء والنحل، طبعة القاهرة، ١٣١٧هـ.
- الحميري (عبد المنعم السبتي)، الروض المعطار في خبر الأقطار، تحقيق إحسان عباس، طبعة بيروت، ١٩٧٥.
- ابن حوقل (محمد بن علي النصيبي)، صورة الأرض، طبعة بيروت، بلاتا.
- ابن حيان، المقتبس في رجال الأندلس، طبعة باريس، ١٩٣٦.
- ابن خاقان (الفتح بن محمد)، قلائد العقيان في محاسن الأعيان، طبعة تونس، ١٩٦٦.
- ابن الخطيب (إسان الدين محمد بن عبد الله)، أعمال الأعلام فيمن بويغ قبل الاحتلال من ملوك الإسلام، تحقيق: ليفي بروفنسال، طبعة بيروت، ١٩٦٦، الإحاطة في أخبار غرناطة، تحقيق: عبد الله عنان، طبعة القاهرة، ١٩٧٣.
- ابن خلدون (عبد الرحمن)، العبر وديوان المبتدأ والخبر، طبعة بولاق، ١٢٨٤هـ، التعريف بابن خلدون ورحلته شرقاً وغرباً.
- ابن خلكان (أحمد بن محمد)، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق: يحيى الدين عبد الحميد، طبعة القاهرة، ١٩٥٠.
- الدباغ (عبد الرحمن الأنصاري)، معالم الإيمان في معرفة أهل القيروان، طبعة تونس، ١٩٠١.
- دبوز (محمد علي)، تاريخ المغرب الكبير، طبعة القاهرة، ١٩٦٣.

- ابن أبي دينار (محمد بن أبي القاسم)، المؤنس في أخبار إفريقية والمغرب، تحقيق: المنجي الكعبي، طبعة تونس، ١٩٦٨.
- الدوري (عبد العزيز)، مقدمة في التاريخ الاقتصادي العربي، طبعة بيروت، ١٩٦٠، مقدمة في تاريخ صدر الإسلام.
- دوزي، تاريخ مسلمي إسبانية، ترجمة: حسن حبشي، طبعة دار المعارف.
- دينيت (دانيل)، الجزية والإسلام، ترجمة الدكتور فوزي فهمي جاد الله، طبعة بيروت، ١٩٦٠.
- الدينوري، الأخبار الطوال، طبعة القاهرة.
- رستم (أيسد)، العرب والروم، طبعة أولى، بيروت، ١٩٥٥.
- الزركشي (محمد بن إبراهيم)، تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية، تحقيق: محمد ماضور، طبعة تونس، ١٩٦٦.
- زغلول عبد الحميد (سعد)، تاريخ المغرب العربي، طبعة القاهرة، ١٩٦٥.
- زيدان (جرجي)، تاريخ التمدن الإسلامي، طبعة القاهرة، ١٩٥٨.
- سالم (عبد العزيز)، تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس، طبعة بيروت، ١٩٦٢، تاريخ المغرب العربي، طبعة الإسكندرية، ١٤٩٦٦.
- صقر (أحمد)، مدينة المغرب العربي في التاريخ، طبعة تونس، بلاتا.
- الطبري (محمد بن جيري)، تاريخ الرسل والملوك، طبعة أبو الفضل إبراهيم.
- طرخان (إبراهيم علي)، المسلمون في أوروبا، طبعة القاهرة، ١٩٦٦.

- عاقل (نبيه)، الإمبراطورية البيزنطية، طبعة دمشق، ١٩٧٠، تاريخ العرب القديم وعصر الرسول، طبعة دمشق، ١٩٦٩.
- ابن عذاري المراكشي، البيان المغرب في أخبار المغرب، طبعة ليون،
- العدوي (إبراهيم)، الأمويون والبيزنطيون، الطبعة الثانية، الدار القومية للطباعة والنشر.
- ابن العربي، العواصم من القواصم، طبعة مصر، ١٩٦٥.
- عمر فاروق، طبعة الدعوة العباسية، الطبعة الأولى، بيروت، ١٩٧٠.
- عنان (عبد الله)، دولة الإسلام في الأندلس، طبعة أولى، بيروت، ١٩٤٣.
- فان فلوتن، السيادة العربية والشيعية والإسرائيليات في عهد بني أمية، ترجمة: إبراهيم حسن ومحمد زكي إبراهيم، طبعة أولى القاهرة، ١٩٣٤.
- فلهاوزن (يوليوس)، تاريخ الدولة العربية، ترجمة: محمد عبد الهادي أبو ريدة، سلسلة الألف كتاب.
- فيصل (شكري)، حركة الفتح الإسلامي في القرن الأول، طبعة بيروت، دار العلم للملايين.
- ابن قتيبة، الإمامة والسياسة، طبعة القاهرة، ١٣٢٥هـ.
- القلقشندي، مآثر الأنافة في معالم الخلافة، طبعة الكويت، ١٩٦٤.
- كاهن (كلود)، تاريخ العرب والشعوب الإسلامية، ترجمة: بدر الدين القاسم، طبعة بيروت، ١٩٧٢.
- كرد علي، خطط الشام، طبعة دمشق، ١٩٢٦.

- ماجد (عبد المنعم)، التاريخ السياسي للدولة العربية، الطبعة الثالثة، ١٩٦٦.
- المسعودي، مروج الذهب، طبعة محيي الدين عبد الحميد، القاهرة، ١٩٤٨.
- المقرئ، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، طبعة القاهرة، ١٩٤٩.
- المقرئ، النزاع والتخاصم فيما بيني أمية وبني هاشم، طبعة ليون، ١٨٨٨.
- مؤلف مجهول، أخبار مجموعة في فتح الأندلس، طبعة مدريد، ١٨٦٧.
- مؤنس (حسين)، فتح العرب للمغرب، طبعة القاهرة، ١٩٤٧.
- النص (إحسان)، العصبية القبلية وأثرها في شعر الأموي، طبعة بيروت، دار اليقظة العربية.
- النصولي (أنيس زكريا)، الدولة الأموية في الشام، طبعة بغداد، ١٩٢٧.
- اليعقوبي (أحمد بن يعقوب)، تاريخ اليعقوبي، طبعة دار صادر، بيروت، ١٩٦٠.
- يوسف أشباخ، تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين، ترجمة: محمد عبد الله عنان، طبعة القاهرة، ١٩٤١.
- Bell (herald), The administration of Egypt under the Umayyad Calpihs.
- Bury (J.B) history of the later Roman Empire-Ed-London, 1931.
- Cressul, Early Muslim Architecture penguin, Beirut, 1968.